

تَفْرِيعٌ مِنْ بَرَنَامِجِ أُصُولِ الْعِلْمِ الْأَوَّلِ (١٤٣٣ - ١٤٣٤ هـ)

تَفْسِيرُ

الْفَاتِحَةِ وَقِصَارِ الْمُفَصَّلِ

تَصَنَّفُ

صَالِحِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَمْدٍ الْعُصَيْمِيِّ
غَفَرَ اللَّهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِأَسَاتِيذِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

مُقدِّمةُ الشيخِ صالحِ بن عبد الله بن حمَدِ العُصيمي حفظه الله:

السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ،

الحمدُ لله الذي جعلَ للعلمِ أصولًا، وسَهَّلَ بها إليه وُصولًا، وأشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ مُحَمَّدًا عبْدُهُ ورسولُهُ، صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ما بُيِّنَت أصولُ العلوم وأُبرِزَ المنطوقُ منها والمفهوم، أمَّا بعد:

فهذا شَرْحُ الكتابِ السَّادِسِ مِنْ برنامجِ «أُصولِ العِلْمِ» في سَنَتِهِ الأُولَى ثلاثٍ وثلاثينَ بعدَ الأربعمِائَةِ والألفِ وأربَعٍ وثلاثينَ بعدَ الأربعمِائَةِ والألفِ، وَهُوَ كِتَابُ «تَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ وَقِصَارِ الْمُفَصَّلِ» لِمُصَنِّفِهِ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ حَمَدِ الْعُصَيْمِيِّ.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله خلق كلَّ شيءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا، وَأَنْزَلَ الكتابَ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا، وَصَلَّى اللهُ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ دَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا، وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.
أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ مَعْرِفَةَ مَعَانِي كَلَامِ اللَّهِ، وَالْإِشْرَافَ عَلَى مَكْنُونِ هِدَاةِ، هِيَ أَوْلَى مَا أُدْمِنَ فِيهِ النَّظَرُ، وَخَرَّكَتْ نَحْوَهُ الْفِكْرَ، فِيهِ تُحْصِلُ النَّفُوسَ رَاحَتَهَا، وَتَحُوزُ الْقُلُوبُ طُمَأْنِينَتَهَا.

قَوْلُهُ: (وَالْإِشْرَافَ عَلَى مَكْنُونِ هِدَاةِ) أَي: عَلَى الْهُدَى الْمَحْفُوظِ فِيهِ، وَهُوَ مَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْبَيَانِ وَالْإِشْرَادِ.

وَهِدَايَةُ الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

- أَحَدُهُمَا: هِدَايَةُ عَامَّةٌ لِلْعَالَمِينَ.

- وَالْآخَرُ: هِدَايَةُ خَاصَّةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ.

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْهِدَايَةَ الْعَامَّةَ لِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ، وَالْهِدَايَةَ الْخَاصَّةَ لِإِضْحَاحِ الْمَحَجَّةِ، فَالْمُؤْمِنُونَ تَوَوَّلُوا هِدَايَتَهُمُ بِالْقُرْآنِ إِلَى الْإِنْتِفَاعِ، وَسَائِرُ الْخَلْقِ تَوَوَّلُوا هِدَايَتَهُمُ بِالْقُرْآنِ إِلَى اضْمِحْلالِ حُجَجِهِمُ وَالْإِنْقِطَاعِ.



أَلَا وَإِنَّ قِصَارَ مُفَصَّلِهِ اللَّطِيفِ، مِنْ الضُّحَى إِلَى آخِرِ الْمُصْحَفِ الشَّرِيفِ، مُحَلٌّ عَنَايَةِ جَمْهُورِ الْمُسْلِمِينَ حَفْظًا؛ لِقِصَرِ آيَاتِهَا، وَعَذُوبَةِ سِيَاقِهَا، وَلِكُلِّ فُضَائِلٍ مُخْصُوصَةٍ، وَمُقَاصِدٍ مُنْصُوصَةٍ، فَهِيَ حَقِيقَةٌ بِالتَّفْهَمِ، وَجَدِيرَةٌ بِالتَّعَلُّمِ.

وَهَذَا تَفْسِيرٌ مُخْتَصَرٌ لِلسُّورِ الْمَذْكُورَةِ، يَقْرُبُ تَنَاوُلَهُ، وَيَسْهَلُ تَأْمُلُهُ، قَيَّدَتْهُ رَاجِيًا مَنْفَعَتَهُ التَّامَّةَ، وَمُلْتَمِسًا بَرَكَتَهُ الْعَامَّةَ، مُسْتَفْتَحًا بِتَفْسِيرِ الْفَاتِحَةِ لِمَا لَهَا مِنْ مَقَامٍ عَظِيمٍ، وَمَنْزِلٍ كَرِيمٍ. وَاللَّهُ أَسْأَلُ السَّلَامَةَ مِنَ الزَّلَلِ، وَاتَّقَاءَ سُوءِ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ.

قَوْلُهُ: (فَهِيَ حَقِيقَةٌ بِالتَّفْهَمِ، وَجَدِيرَةٌ بِالتَّعَلُّمِ): تَقَدَّمَ أَنَّ خِطَابَ الشَّرْعِ نَوْعَانِ:

- أَحَدُهُمَا: الْخِطَابُ الشَّرْعِيُّ الطَّلَبِيُّ: الْمُتَضَمِّنُ فِعْلَ الْأَمْرِ، وَتَرْكَ النَّهْيِ، وَاعْتِقَادَ حِلِّ الْحَالِ.

- الْآخَرُ: الْخِطَابُ الشَّرْعِيُّ الْخَبَرِيُّ: الْمُفْتَضِي لِلتَّصَدِيقِ إِبْثَاتًا وَنَفْيًا.

وَمَرَدُّ مَعْرِفَةِ هَذَيْنِ النَّوَاعِينَ مِنَ الْقُرْآنِ إِلَى مِقْدَارَيْنِ مِنْهُ:

- أَحَدُهُمَا: قِصَارُ الْمُفَصَّلِ.

- وَالْآخَرُ: سُورَةُ الْبَقَرَةِ.

فَإِنَّ جُلَّ مَا فِي قِصَارِ الْمُفَصَّلِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخِطَابِ الشَّرْعِيِّ الْخَبَرِيِّ، وَجُلُّ مَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِالْخِطَابِ الشَّرْعِيِّ الطَّلَبِيِّ، فَإِذَا أَحَاطَ الْمُتَلَقِّي بِتَفْسِيرِ هَذَيْنِ الطَّرْفَيْنِ مِنَ الْقُرْآنِ يَكُونُ مُحِيطًا بِجَوَامِعِ التَّفْسِيرِ مُسْتَمْسِكًا مِنْهُ بِأَصْلٍ وَثِيقٍ. وَأَخَذُ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ وَتَلَقَّيْهِ لَا يَزَالُ النَّاسُ يَخْبِطُونَ فِيهِ خَبْطَ عَشَوَاءٍ وَيُرْسِلُونَ فِيهِ الْكَلَامَ عَلَى أَنْحَاءٍ لَا يَوُولُ الْأَمْرُ بِأَخِذِهَا إِلَى إِصَابَةِ حَظٍّ مِنْهُ، لَكِنْ مِنْ جَوَامِعِ الْقَوْلِ أَنْ تَعْتَنِيَ بِمَعْرِفَةِ تَفْسِيرِ قِصَارِ الْمُفَصَّلِ أَوَّلًا، ثُمَّ تُتِمِّمَ أَخْذَ الْمُفَصَّلِ ثَانِيًا، ثُمَّ تَرْجِعْ إِلَى أَخْذِ تَفْسِيرِ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ مَنْ أَحَاطَ بِهَذِهِ الْمَوَاقِعِ مِنَ الْقُرْآنِ يَقِفُ عَلَى كَثِيرٍ مِنْ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى دِرَاسَةٍ كَثِيرٍ مِنْ بَقِيَّةِ سُورِ الْقُرْآنِ؛ لِأَنَّ هَذَيْنِ الْمِقْدَارَيْنِ بِمَنْزِلَةِ مِفْتَاحِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. وَكَانَ أَخْذُ التَّفْسِيرِ فِي الْبِلَادِ الْهِنْدِيَّةِ فِي جَنُوبِهَا - وَهِيَ بِلَادُ كِرْلَا - يُعْتَنَى فِيهَا أَوَّلًا بِتَفْسِيرِ جُزْءٍ عَمِّ، ثُمَّ يُعْتَنَى ثَانِيًا بِتَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَرَبَّمَا انْتَهَى جُلُّ أَخْذِ التَّفْسِيرِ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنْهُمْ إِلَى هَذَيْنِ الْمِقْدَارَيْنِ، فَيَسْتَعِينُونَ بِمَا أَخَذُوا عَلَى مَعْرِفَةِ تَفْسِيرِ بَاقِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَهَذَا مَسْلَكٌ حَسَنٌ فِي تَلَقِّي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ.



تفسيرُ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

عن أبي سعيدٍ ابنِ المُعلّى رضي الله عنه قال: كنتُ أصليّ فدعاني النبيُّ صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، قلتُ: يا رسولَ الله إنني كنتُ أصليّ، قال: «ألم يقلِ الله: ﴿أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤]»، ثم قال: «ألا أعلمك أعظمَ سورةٍ في القرآنِ قبلَ أن تخرجَ من المسجدِ»، فأخذ بيدي، فلمّا أردنا أن نخرجَ قلتُ: يا رسولَ الله! إنك قلتَ: «لأعلمنك أعظمَ سورةٍ من القرآن»، قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، هي السَّبعُ المثاني، والقرآنُ العظيمُ الذي أُوتيته». رواه البخاريُّ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: «قالَ اللهُ تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، ولعبدِي ما سأل، فإذا قالَ العبدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، قالَ اللهُ تعالى: حمدي عبدِي، وإذا قالَ: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، قالَ اللهُ تعالى: أثنى عليَّ عبدِي، وإذا قالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قالَ: مجّدي عبدِي، - وقالَ مرّةً: فوّض إليَّ عبدِي -، فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، قالَ: هذا بيني وبين عبدِي، ولعبدِي ما سأل، فإذا قالَ: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قالَ: هذا لعبدِي، ولعبدِي ما سأل». رواه مسلمٌ.

قوله صلى الله عليه وسلم في الحديثِ الأوّل «هي السَّبعُ المثاني» يعني الفاتحة: أنّها تُسمّى بـ«السَّبعِ المثاني»، وذلك لأمرين:

- أحدهما: يتعلّق بالألفاظِ والمباني؛ فإن آياتها يتبع بعضها بعضاً، ويُتلى بعضها بعد بعضٍ مُتتابعاً.
- والآخر: يتعلّق بالمقاصِدِ والمعاني، لاقتراحِ جُملةٍ من المعاني المُتناسِبةِ فيها، كالخبرِ بالإنشاء في قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خبراً، وقوله: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إنشاءً، واقتراحِ صفاتِ الجلالِ بصفاتِ الجمال، كقوله في الأوّل: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فإنّها إشارةٌ إلى صفاتِ الجلال، وقوله في الثاني: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ فإنّها إشارةٌ إلى صفاتِ الجمال؛ فلو قُوع الاقترانِ بينَ المقاصِدِ والمعاني - مع ما قارنهُ ممّا سبقَ ذكرُهُ في الألفاظِ والمباني - سُمّيت سورةُ الفاتحةِ بـ(السَّبعِ المثاني).

وقوله ﷺ في الحديث الأول أيضًا: «والقرآن العظيم» جملة لها معنيان:

- أحدهما: أنها وصفٌ لل فاتحة أيضًا، فتقديرُ الكلام: (وهي المقرؤ العظيم)، ويدلُّ على ذلك كونُ الفاتحة أعظم سورة في القرآن الكريم.

- والآخر: أن يكون العطفُ فيها من عطفِ العامِّ على الخاصِّ، فيكون إنشاءً لجملةٍ جديدةٍ يُرادُّ بها القرآن كله.

وقوله في الحديث الثاني: «هذا بيني وبين عبدِي، ولعبدِي ما سأل» إشارة إلى عهدٍ.

وقوله: «هذا لعبدِي، ولعبدِي ما سأل» إشارة إلى وعدٍ.

والعهدُ والوعدُ المذكوران في سورة الفاتحة هما المشارُ إليهما في حديثِ شدَّاد المعروف بحديثِ (سَيِّدِ الاسْتِغْفَارِ) في قولِ العبدِ: «وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ»؛ فَإِنَّ الْعَهْدَ وَالْوَعْدَ الْمَذْكُورَيْنِ فِي حَدِيثِ شَدَّادٍ يُرَادُّ بِهِمَا عَهْدًا وَوَعْدًا يَتَكَرَّرَانِ مَعَ الْإِنْسَانِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْعَهْدِ وَالْوَعْدِ يَقَعُ مُتَكَرِّرًا مَعَ الْإِنْسَانِ فِي يَوْمِهِ وَلَيْلِهِ كَمَنْزِلَةِ تَكَرُّرِ قِرَاءَتِهِ سُورَةَ الْفَاتِحَةِ، وَهَذَا مِنْ غَوَامِضِ الْمَعَانِي فِي بَيَانِ الْحَدِيثِ؛ فَإِنَّ الْمُتَكَلِّمِينَ فِي الْحَدِيثِ ذَكَرُوا مَعَانِيَ بَعِيدَةً لِلْعَهْدِ وَالْوَعْدِ، وَالْمُنَاسِبُ مَا جَاءَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ هَذَا: مِنْ أَنَّ الْفَاتِحَةَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلْعَهْدِ وَالْوَعْدِ الْمَذْكُورَيْنِ فِي حَدِيثِ شَدَّادِ ابْنِ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .



﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ • مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ • إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ •
أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ • صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:

[٧-٢]

﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أقرأ القرآن، فمقصود المَبْسَمِلِ في فاتحة القراءة هو بسم الله الرحمن الرحيم أقرأ.

والاسم الأحسن (الله) عَلَّمَ عَلَى رَبَّنَا ﷻ ، ومعناه: المألوه المستحقُّ لإفراده بالعبادة، و﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ اسمان من أسمائه تعالى، دالَّان على رحمته؛ فأولُّهما دالٌّ عليها حال تعلُّقها به في سعتها، والآخر دالٌّ عليها حال تعلُّقها بالخلق في وصولها إليهم.

وأول هذه السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فالحمد هو الإخبار عن محاسن المحمود مع حبه وتعظيمه، و﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اسمٌ إضافيٌّ، فالرَّبُّ في كلام العرب: المالك، والسَّيِّد، والمصلح للشيء، والعالمين جمع عالم، وهو اسمٌ للأفراد المتجانسة من المخلوقات، فكلُّ جنسٍ منها يُطلق عليه عالمٌ، فيقال: عالم الإنس، وعالم الجن، وعالم الملائكة.

وربوبيته ﷻ لم تُنتِج ظلمًا، بل مضمونها العناية بالخلق ورحمتهم، ولهذا وصف نفسه بقوله:

﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فهو رحمنٌ وسعت رحمته جميع الخلق، رحيمٌ يُوصِل رحمته إليهم.

قوله: (لَمْلَابَسَةٌ جميع أجزاء الفعل لأسمائه تعالى) المراد بالملاَبَسَةِ: المُصَاحَبَةُ وُقُوعُ الفعل معه.

وقوله: (وهو مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ) إلى آخره؛ أي: أن الجارَّ والمجرورَ في قوله ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ مُتَعَلِّقٌ بِمَحذُوفٍ يُبَيِّنُ معناه؛ إذ لا يَتَحَقَّقُ المعنى المرادُ مِنَ الجارِّ والمجرورِ إلَّا بِذِكْرِ مُتَعَلِّقِهِ.

وقوله: (وتقديره فعلاً خاصاً مؤخراً أولي)^(١) أي: أولى في التقدير، وفي ذلك إعلامٌ بأنَّ التقديرَ في هذا المَحَلِّ تعدَّدَ القولُ فيه، وأصحُّه تقديره فعلاً خاصاً مؤخراً.

(١) هذه الجُمْلُ الثلاث - وهي: (لَمْلَابَسَةٌ جميع...)، و(وهو متعلق بمحذوف...)، و(وتقديره فعلاً خاصاً...) - التي شرحها الشيخ غير

موجودة في نسخة مقررات أصول العلم ولا في نسخة مقررات مهمات العلم، فليتنبه.

فهو موصوفٌ بثلاثِ صفاتٍ:

- أحدها: أن يكونَ فعلاً، ولا يكونَ اسماً؛ لأنَّ المناسبَ للعملِ ذِكْرُ الفعلِ لا الاسم.
 - والثاني: أن يكونَ خاصّاً؛ أي: مُبَيَّنّاً مَوْضِعاً بحسبِ المَحَلِّ، ولا يكونَ فعلاً عامّاً مُرْسِلاً.
 - والثالث: أن يكونَ مُؤَخَّرًا لا مُقَدِّمًا؛ لِئَناسِبَ تقديمَ اسمِ الله سبحانه وتعالى على غيره.
- والمُناسِبُ في هذا المَحَلِّ أن يُقَدَّرَ الكلامُ: (بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ **أقرأ**)، فإنَّ قولَ القائلِ عندَ استفتاحِ قراءتِهِ سورةً ما أو غيرها: (بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ)، لا غَرْوَ أنَّ الفعلَ الذي يُريدُهُ هو فعلُ القراءة، فيُقَدَّرُ حينئذٍ فعلاً - هو (إقرأ) -، ويكونُ ذلكَ الفعلُ خاصّاً لأنَّه ليسَ عامّاً، فلا يُقَدَّرُ بقولِ القائلِ (بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ **أبتدا**)، وإنَّما يُقَدَّرُ بـ(إقرأ) لأنَّه المُناسِبُ للمَحَلِّ، ثمَّ يكونُ مُؤَخَّرًا مُراعاةً لتقديمِ ذِكْرِ الله سبحانه وتعالى على غيره.

وقوله: **(والاسمُ الأحسنُ «الله»)** مأخوذٌ من خبرِ الله ﷺ عن أسمائه؛ فإنَّ الله قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فيُخْبِرُ عنها جميعاً بأنَّها: حُسْنَى، ويُخْبِرُ عن الواحدِ منها بأنَّه: أَحْسَنُ لأنَّ (حُسْنَى): فُعْلَى من الحُسن - وهي مؤنَّثَةٌ - ومُذَكَّرُها (أَحْسَنُ)، فإذا أُريدَ الخَبَرُ عن جميعِ أسماءِ الله تعالى قيل: (أسماءُ الله الحُسْنَى)، وإذا أُريدَ الخَبَرُ عن واحدٍ منها قيل: (الاسمُ الأحسنُ).

* **فمثلاً:** يُقالُ في إعرابِ جُمْلَةٍ (قالَ اللهُ الحقُّ): (اللهُ): الاسمُ الأحسنُ، فاعلٌ مرفوع.

وما دَرَجَ عليه المُتأخِّرونَ من قولِهِم: (لفظُ الجلالَةِ)، فلا يَخْلُوا مِنْ اعتراضاتٍ، أقلُّها عُدُولُ خَبَرِ الشَّرِيعَةِ عَنْهُ؛ فَإِنَّ اللهَ ﷻ لم يُخْبِرَ عن اسمِهِ بذلك، ولا أَخْبَرَ عَنْهُ رَسولُهُ ﷺ، فالْمُوافِقُ للخطابِ الشرعي عندَ إرادةِ الخَبَرِ عن اسمٍ من أسماءِ الله أن يُقالَ: (الاسمُ الأحسنُ: كذا وكذا).

وقوله: **(والعالمينَ جمعُ عالمٍ: وهو اسمٌ للأفرادِ المُتجانِسةِ من المخلوقات)**^(١)، فكلُّ جنسٍ منها يُطَلَقُ عليه عالمٌ) عُدُولٌ عن القولِ المشهورِ أنَّ العالمينَ اسمٌ لِمَا سِوَى الله، لأنَّ هذهِ الجُمْلَةَ المشهورةَ أَجَنِبَتْ عن اللِّسانِ العربيِّ، فإنَّ العربَ لم تَضَعِ العالمينَ للدَّلالةِ على ما سِوَى الله، وإنَّما وُضِعَتْ في اللِّسانِ العربيِّ للدَّلالةِ على المخلوقاتِ المُتجانِسةِ، فالمخلوقاتُ المُتجانِسةُ تُسمَّى عالمًا: كعالمِ الجنِّ، وعالمِ الإنسِ، وعالمِ الملائكةِ. وليست كلُّ مخلوقاتِ الله ﷻ: مُتجانِسةً؛ بل منها أفرادٌ لا نَظيرَ لها:

(١) هذه الجُمْلَةُ التي بين المعقوفين هي المثبِّتة في الأصل، وحسن التنبيه لأنَّ الشيخ قال - كما في التسجيل - في هذا الموضع: **(وهو اسمٌ لجميعِ الخلقِ من مبدئِهِم إلى مُنتهِائِهِم، وكلُّ جنسٍ يُطَلَقُ عليه عالمٌ)**، ولعلَّ الشيخ حفظه الله ذكرَ الجُمْلَةَ بالمعنى، والصحيح هو المثبت في النسخة المعتمدة من مقررات أصول العلم.

كعرشِ رَبَّنَا سبحانه وتعالى، أو كُرْسِيِّهِ، أو الْجَنَّةِ، أو النَّارِ بحسبِ حالِهما التي خلقَهُما اللهُ سبحانه وتعالى عليها، فلا يكونُ قولُهُم (العالمين: اسمٌ لِمَا سِوَى اللهِ) مُستنبطًا من الوضع اللُّغوي، وإنَّما هو دَخِيلٌ من طرائقِ الفلاسِفةِ والمنطقيِّين؛ فَإِنَّ من مَشهورِ مُقَدِّمَاتِ المنطقيِّينَ والفلاسِفةِ ونتائجِهِم قولُهُم: (اللهُ قديمٌ، والعالمُ حادثٌ؛ فكلُّ ما سِوَى اللهِ عالمٌ)، فهي نتيجةٌ منطقيَّةٌ لمُقَدِّمَتَيْنِ مشهورَتَيْنِ، ثُمَّ دَرَجَتِ هذه النتيجةُ إلى كَلامِ المُتكلِّمينَ في العلمِ حتَّى ظنُّوها معنى العالمين في الوضع العربي، أشارَ إلى ذلك بإيجازِ العلامةِ الطَّاهِرِ بنِ عاشور رَحِمَهُ اللهُ في «التَّحْرِيرِ وَالتَّنْوِيرِ».

وقولُهُ - وفَقَّهُ اللهُ - : (فَهُوَ رَحْمَنٌ وَسِعَتْ رَحْمَتُهُ جَمِيعَ الْخَلْقِ، رَحِيمٌ يُوصِلُ رَحْمَتَهُ إِلَيْهِمْ) مَبْنِيٌّ عَلَى الْمُحَقِّقِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا؛ فَإِنَّ كُلَّ اسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ سبحانه وتعالى يَتَضَمَّنُ مَعْنَى لَيْسَ فِي غَيْرِهِ، وَيَقْتَضِي ذَلِكَ الْكَمَالَ الرَّبَّانِيَّ؛ فَإِنَّهُ لَوْ ظُنَّ تَرَادُفُهَا بِاعْتِبَارِ الْمَعَانِي، لَمْ يَكُنْ فِي كُلِّ اسْمٍ مَا يَزِيدُهُ عَلَى غَيْرِهِ وَلَوْ رَجَعَ إِلَى أَصْلٍ وَاحِدٍ: كَالرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ)، فَإِنَّهُمَا يَرْجِعَانِ إِلَى صِفَةِ الرَّحْمَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّ الْمَقْطُوعَ بِهِ - شَرْعًا وَوَضْعًا لُغَوِيًّا - أَنَّ بَيْنَهُمَا فَرْقٌ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا - كَمَا تَقَدَّمَ - أَنَّ الرَّحْمَنَ اسْمٌ لِلَّهِ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ بِهِ سبحانه وتعالى، وَأَنَّ الرَّحِيمَ اسْمٌ لِلَّهِ بِاعْتِبَارِ تَعَلُّقِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ بِالْمَخْلُوقِينَ الَّذِينَ وَقَعَتْ عَلَيْهِمُ رَحْمَةُ اللهِ ﷻ، فَلَمَّا اخْتَلَفَ الْمُتَعَلِّقُ تَعَدَّدَ الْأَسْمَاءُ، فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ مَنْظُورًا فِي اسْمِ الرَّحْمَنِ إِلَى تَعَلُّقِ صِفَةِ الرَّحْمَةِ بِاللَّهِ سُمِّيَ رَحِيمًا، وَلَمَّا كَانَ الْمَنْظُورُ إِلَيْهِ فِي اسْمِ الرَّحِيمِ وَقُوعُ أَثَرِ تِلْكَ الصِّفَةِ عَلَى الْخَلْقِ سُمِّيَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَحِيمًا. وَلَا يَخْتَصُّ هَذَا الْقَوْلُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ بِهِمَا، بَلْ كَمَا ذَكَرْتُ لَكُمْ غَيْرَ مَرَّةٍ أَنَّ أَنْفَعَ الْعِلْمِ: مَعْرِفَةُ أَصُولِ الْأَسْتِدْلَالِ وَوُجُوهِ الْفَهْمِ، فَالْقَوْلُ فِي (الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ) نَظِيرُهُ الْقَوْلُ فِي (الْعَلِيِّ وَالْأَعْلَى) وَ(الْكَرِيمِ وَالْأَكْرَمِ)، فَإِنَّهَا تَجْرِي فِي مَجْرَى وَاحِدًا. وَسَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ لَكُمْ بَيِّنَتَيْنِ فِي الْفَرْقِ بَيْنَ (الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ)، وَهُمَا:

وَرَحْمَةُ اللهِ مَهْمَا عُلِّقَتْ بِذَاتِهِ فَالْأَسْمُ رَحْمَنٌ ثَبَتَ

أَوْ عُلِّقَتْ بِخَلْقِهِ الَّذِي رَحِمَ فَسَمَّاهُ الرَّحِيمَ فَازَ مَنْ سَلِمَ

فَإِنَّ هَذَيْنِ الْبَيِّنَتَيْنِ يُضْبَطُ بِهِمَا الْفَرْقُ بَيْنَ (الرَّحْمَنِ وَالرَّحِيمِ)، وَقَدْ أَشَارَ إِلَى الْفَرْقِ الْمَذْكُورِ الْعَلَامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي «بَدَائِعِ الْفَوَائِدِ».



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ أَكَّدَ رَبوبيته بقوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، وهو يومُ الحساب والجزاء على الأعمال، الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ • ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ • يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٧-١٩]، وهو يوم القيامة، وَخَصَّهُ بِالذِّكْرِ؛ لِأَنَّهُ يَظْهَرُ فِيهِ لِلخَلْقِ كَمَالُ مُلْكِ اللَّهِ تَمَامَ الظُّهُورِ، لَانْقِطَاعِ أَمَلِكِ الْخَلَائِقِ؛ وَإِلَّا فَهُوَ مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ وَغَيْرِهِ مِنَ الْيَافِثِ.

وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾؛ أَي نَخْصُصُكَ وَحَدَّكَ بِالْعِبَادَةِ، وَنَسْتَعِينُ بِكَ وَحَدَّكَ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا، وَعِبَادَةِ اللَّهِ: تَأْلُهُ الْقَلْبَ لَهُ بِالْحَبِّ وَالْخُضُوعِ، وَالْمَأْمُورُ بِهِ فِيهَا امْتِثَالُ خُطَابِ الشَّرْعِ، وَالِاسْتِعَانَةُ بِهِ هِيَ طَلِبُ الْعَبْدِ الْعَوْنِ مِنْهُ فِي الْوُصُولِ إِلَى الْمَقْصُودِ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أَي دُلَّنَا وَأَرْشِدْنَا إِلَيْهِ، وَثَبَّتْنَا عَلَيْهِ حَتَّى نَلْقَاكَ، وَهُوَ الْإِسْلَامُ، ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الْمُتَّبِعِينَ لِلْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، ﴿غَيْرِ﴾ صِرَاطِ ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ، وَهُمْ الْيَهُودُ، وَمَنْ عَدَلَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ عِلْمٍ فِيهِ شَبَهٌ مِنْهُمْ، ﴿وَلَا﴾ صِرَاطِ ﴿الضَّالِّينَ﴾ الَّذِينَ تَرَكُوا الْحَقَّ عَنْ جَهْلِ فَلَمْ يَهْتَدُوا وَضَلُّوا الطَّرِيقَ، وَهُمْ النَّصَارَى، وَمَنْ عَدَلَ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ عَنْ جَهْلِ فِيهِ شَبَهٌ مِنْهُمْ.

قَوْلُهُ: (ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؛ أَي دُلَّنَا وَأَرْشِدْنَا إِلَيْهِ، وَثَبَّتْنَا عَلَيْهِ حَتَّى نَلْقَاكَ) إِعْلَامٌ بِأَنَّ الْهَدَايَةَ الْمَطْلُوبَةَ الْمُتَعَلِّقَةَ بِالصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ نَوْعَانِ:

- أَحَدُهُمَا: هَدَايَةُ دَلَالَةٍ وَوُصُولٍ إِلَيْهِ.

- وَالْآخَرُ: هَدَايَةُ تَمَسُّكِ بِهِ وَثَبَاتٍ عَلَيْهِ.

فَالْعَبْدُ مُحْتَاجٌ إِلَى دَوَامِ سُؤَالِ اللَّهِ ﷻ هَاتَيْنِ الْهَدَايَتَيْنِ؛ فَإِنَّ الْمَرْءَ إِذَا هُدِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ إِجْمَالًا، فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَى هَدَايَةٍ فِي تَفَاصِيلِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَخْلُوا أَحْوَالُ الْعَبْدِ فِي حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ مِنْ وَارِدَاتٍ مُتَجَدِّدَةٍ يَفْتَقِرُ فِيهَا إِلَى [اسْتِهْدَاءِ] اللَّهِ ﷻ وَسُؤَالِهِ أَنْ يَهْدِيَهُ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَمَا يَقَعُ مِنْ تَكَرُّارِ الدُّعَاءِ لِلْهَدَايَةِ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ لَيْسَ سُؤَالًا بِأَمْرٍ وَصَلَ إِلَيْهِ وَفَرَّغَ مِنْهُ؛ بَلِ الَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ هُوَ الْهَدَايَةُ الْإِجْمَالِيَّةُ بِكَوْنِ الْعَبْدِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَأَمَّا تَفَاصِيلُ تِلْكَ الْهَدَايَةِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ يَحْتَاجُ فِي كُلِّ أَمْرٍ - صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ - أَنْ يَسْأَلَ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْهَدَايَةَ، وَشُهُودُ هَذَا الْمَقَامِ يُعْظَمُ فِي الْعَبْدِ حَاجَتُهُ إِلَى هَدَايَةِ

الله سبحانه وتعالى، ويلحظ بعينه صدق قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فإن الفقر الأعظم هو فقرك إلى الهداية في أحوالك كلها.

* وأنا أضرب لك مثلاً يُقَرِّبُ هذا المعنى لك: فإنك في جملة تفاصيل سلوكك الصراط المستقيم تحرص على العلم وتبغى أن تناله بحضور مثل هذا المجلس، وستجد من الخلق من يشد على يدك ويحرصك على الجلوس فيه والحرص عليه، وستجد من الخلق أيضاً من يُعِدُّكَ منه ويشغلك بغيره عنه، وإذا لم يكن لك مشهد مع ربك سبحانه وتعالى في سؤال الهداية في هذا الدرس ونظيره، فإنك شديد العوز إلى تلك الهداية، وغيب هذا المعنى مما يضعف سير القلب إلى الله سبحانه وتعالى فلا يكون العبد مُشاهداً لافتقاره العظيم إلى هداية الله سبحانه وتعالى. وفوق هذا - من سؤالك هداية الله ﷻ لك في تفاصيل الصراط المستقيم - فإنك مُفتقر أعظم الافتقار إلى سؤال الله ﷻ أن يُثَبِّتَكَ عليه، فإن الوصول إلى الصراط شأن عظيم، وأعظم منه أن يُثَبِّتَكَ الله سبحانه وتعالى عليه، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الله سبحانه وتعالى يُقَلِّبُهَا كَيْفَمَا يَشَاءُ، وإذا امتنَّ الله ﷻ بجلوسك الآن في مجلس علم، وحرم آخرون منه مشغولون بملاهي الدنيا وغير ذلك، فإنك ينبغي أن تشهد نعمة الله ﷻ عليك في تثبيتك على هذا الخير، وتخاف أن يسلب منك هذا الخير وأن تحرم منه، قال ابن القيم رحمه الله في نونيته:

وَجْعَلْ لِقَلْبِكَ مُقْلَتَيْنِ كِلَاهُمَا مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِيتَانِ

لَوْ شَاءَ رَبُّكَ كُنْتَ أَيْضاً مِثْلَهُمْ فَالْقَلْبُ بَيْنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ

ذكر ابن شاهين أن رجلاً رأى النبي ﷺ في منامه فقال: (يا رسول الله! ادع الله لي أن أموت على الإسلام) فقال النبي ﷺ: (وَالسُّنَّةُ! وَالسُّنَّةُ! وَالسُّنَّةُ!) وعقد أصابعه ثلاثاً. وفي هذا المنام إشارة إلى ما يحتاجه العبد من سؤال الله ﷻ أن يُثَبِّتَهُ على الإسلام الصحيح، وأن يُبْقِيَهُ عليه حتى يختِمَ له بذلك؛ فإن الثبات في الناس عزيز! وكم من إنسان يدعي دعوة ويستكين لها ويلبس لبوسها، فما هي إلا أوقات يسيرة حتى ينخلع مما كان عليه، وفي حاضر اليوم شواهد صدق على مثل هذا. فينبغي أن يخاف العبد من أن يركن إلى الذين ظلموا، أو أن يتلهم بشيء من حطام الدنيا فيصرف قلبه عن المُرَادِ الأعظم والأنس الأكبر في الله سبحانه وتعالى لما عَرَضَ له من هذه الواردات، ولا يُنجِيهِ من ذلك إلا أن يمتنَّ الله سبحانه وتعالى عليه بالثبات، ولذلك كان من أكثر دُعَائِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قُلُوبَنَا عَلَى دِينِكَ» فينبغي أن يجتهد العبد في سؤال الله سبحانه وتعالى الهداية إلى الصراط المستقيم أولاً، والثبات عليه ثانياً. نسأله سبحانه وتعالى أن يهدينا الصراط المستقيم وأن يثبتنا عليه.

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الضُّحَى

عن جُنْدُبِ بْنِ سُفْيَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اشْتَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا، فَجَاءَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ شَيْطَانُكَ قَدْ تَرَكَكَ، لَمْ أَرَهُ قَرِيبًا مِنْذُ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﻋَلَيْكَ: ﴿وَالضُّحَى • وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى • مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى •﴾. مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ

قَوْلُهُ: («فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا») أَي لَمْ يُصِبْ حَظَّهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، فَاِنْقَطَعَ ﻋَلَيْهِ عَنْ دَأْبِهِ وَعَادَتِهِ بِالصَّلَاةِ لَيْلًا، لَيْلَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالضُّحَى﴾ • وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى • مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى • وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى • وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى • أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى • وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى • وَوَجَدَكَ عَابِلًا فَأَغْنَى • فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ • وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ • وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿[الضُّحَى: ١-١١]﴾
أقسم الله تعالى بالضُّحَى، وهو اسم ضوء الشمس إذا أشرق وارتفع، والمراد به هنا النهار كله.

تصَرَّفَ لفظُ الضُّحَى في القرآن على نوعين:

- أحدهما: أن يقع بمعنى: النهار كله، وهذا هو المراد إذا ذُكِرَ في مُقابل الليل.
كقوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا﴾ [النَّازِعَات: ٢٩]؛ فَإِنَّ الضُّحَى هنا: النهار كله.
 - والآخر: أن يكون بمعنى: أوَّلِ النهار، وذلك إذا لم يُقَابَل بِذِكْرِ الليل.
كقوله سبحانه وتعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾ [النَّازِعَات: ٤٦].
- وإذا تقررَ هذا، فإنَّ الواقعَ في سورة الضُّحَى إرادةُ النهارِ كلهَ لأنَّه قال في الآية التالية: ﴿وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى﴾ [الضُّحَى: ٢]، فَوَقَعَ الضُّحَى مُقَابِلًا لِلَّيْلِ فيكونُ معناه النهارُ كله.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

وبالليل إذا سكن بالخلق وثبت ظلامه = على اعتنائه برسوله ﷺ، فقال جواباً للقسم: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾؛ أي ما تركك ربُّك، وما أبغضك بإبطاء الوحي وتأخره عنك. وهذا له من ربِّه في الدنيا؛ ثم بشره بما له في الآخرة فقال: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ فللدار الآخرة خير لك من دار الدنيا، ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ من مظاهر الإنعام ومقامات الإكرام في الآخرة ﴿فَتَرْضَى﴾، وإلى هنا تمَّ جواب القسم بمُثَبِّتَيْنِ بعد مَنْفِيَّتَيْنِ.

قوله: (وإلى هنا تمَّ جواب القسم بمُثَبِّتَيْنِ بعد مَنْفِيَّتَيْنِ):

أَمَّا الْمَنْفِيَّانِ:

- فالأوَّل: في قوله تعالى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾؛ أي: ما تركك.

- والآخر: في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَلَى﴾؛ أي: وما أبغضك.

وَأَمَّا الْمُثَبَّتَانِ:

- فالأوَّل: في قوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾.

- والثاني: في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾.

* كلمة ﴿خَيْرٌ﴾ من أي أبواب النحو؟

[الجواب]: من أفعل التَّفْضِيلِ؛ يعني للدَّلالَةِ على التَّفْضِيلِ، فإذا قلتَ: (فلانٌ خيرٌ من فلان) يعني

أفضل من فلان، فيصيرُ الكلام: (فلانٌ أخيرٌ من فلان)، هذا تقديره. وحذفوا الهمزة للتسهيل، لكثرة

دَوْرَانِهَا واستعمالِهَا، قال ابنُ مالكٍ في «الكافية»:

وْغَالِبًا أَعْنَاهُمْ خَيْرٌ وَشَرٌّ عَنْ قَوْلِهِمْ أَخَيْرٌ مِنْهُ وَأَشَرٌّ

وعلى هذا، قوله تعالى: ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾، يكون تقديرُ الكلام: (وللآخرة أخيرٌ لك من

الأولى)؛ يعني أكثرُ فضلاً من الأولى.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ شَرَعَ يُذَكِّرُهُ بِمَا اَمْتَنَ بِهِ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ﴾ استفهامٌ تقريرٌ؛ أي وجدك ﴿يَتِيمًا﴾ لا أُمَّ لَكَ وَلَا أَبَ، بَلْ مَاتَ أَبُوهُ وَهُوَ حَمْلٌ، وَمَاتَتْ أُمُّهُ وَهُوَ صَغِيرٌ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْقِيَامِ بِمُصَالِحِ نَفْسِهِ، ﴿فَتَأَوَّى﴾ بِأَنْ ضَمَّكَ إِلَى مَنْ يَكْفُلُكَ، وَجَعَلَ لَكَ مَأْوًى تَأْوِي إِلَيْهِ، فَكَفَّلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ كَفَّلَهُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ، حَتَّى آيَدَهُ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ.

قَوْلُهُ: (فَكَفَّلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ، ثُمَّ لَمَّا مَاتَ كَفَّلَهُ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ): أُنِىَ بِهَذَا الْفِعْلِ مُضَعَّفًا: (كَفَّلَهُ) دُونَ (كَفَّلَهُ)، لِأَنَّ فِي التَّضْعِيفِ إِشْهَادٌ لِلَامْتِنَانِ الْوَاقِعِ مِنَ اللَّهِ عَلَى الرَّسُولِ ﷺ؛ فَإِنَّ كَفَالََةَ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ وَأَبِي طَالِبٍ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا وَقَعَتْ بِتَوْفِيقِ اللَّهِ ﷻ، وَإِنْعَامِهِ، وَإِكْرَامِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ؛ فَلَا ظَهَرَ هَذِهِ النِّعْمَةِ وَأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ قَالَ الْمُصَنِّفُ: (فَكَفَّلَهُ جَدُّهُ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ)، وَنَظِيرُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ [فِي قَوْلِهِ تَعَالَى]: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣٧]، يَعْنِي الْمُنَّةَ لِلَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَلَيْسَتْ لَزَكَرِيَّا؛ فَاللَّهُ هُوَ الَّذِي عَطَفَ قَلْبَ زَكَرِيَّا فَكَفَلَ مَرْيَمَ.

* فِي قِرَاءَةِ - بِالتَّخْفِيفِ - ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٣٧]، فَكَيْفَ الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا؟

[الْجَوَابُ]: أَنَّ التَّخْفِيفَ لِإِرَادَةِ نِسْبَةِ الْفِعْلِ إِلَى زَكَرِيَّا، وَالتَّشْدِيدَ لِلْإِعْلَامِ بِأَنْ أَصَلَ فِعْلُ زَكَرِيَّا إِنَّمَا كَانَ بِاعْتِثِهِ مِنْهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* وَالْجَمْعُ بَيْنَ الْقِرَاءَتَيْنِ فِي إِبْرَازِ الْمَعَانِي كَالْجَمْعِ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ الْمُفْتَرِقَتَيْنِ فِي الْقُرْآنِ فِي تَصْدِيقِ مَعْنَى هَذِهِ بِتِلْكَ.

فَمَثَلًا: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فُسِّرَ فِي آخِرِ سُورَةِ الْإِنْفِطَارِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ • يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ [الْإِنْفِطَارُ: ١٧-١٩]، فَكَمَا يُفَسِّرُ الْقُرْآنُ بَايَةً مِنْهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَإِنَّ مِنْ أَكْثَرِ مَوَارِدِ التَّفْسِيرِ الْقِرَاءَاتُ الْوَارِدَةُ فِي الْكَلِمَةِ نَفْسُهَا فِي آيَةٍ مَا، وَهَذَا مِنْ وَجْهِ تَعْظِيمِ عِلْمِ الْقِرَاءَاتِ، فَإِنَّ عِلْمَ الْقِرَاءَاتِ مُعْظَمٌ لِمَا يُورِثُهُ مِنْ اكْتِمَالِ فَهْمِ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ وَإِدْرَاكِ حَقَائِقِ الشَّرْعِ، وَهَذَا يَغِيبُ كَثِيرًا عَنْ مَدَارِكِ الْآخِذِينَ عِلْمَ الْقِرَاءَاتِ، فَإِنَّ مُتَنَهَى وَكَدْهِمْ مُلَاحَظَةُ الصَّوْتِيَّاتِ الْوَاقِعَةِ فِيهَا دُونَ تَطَلُّعٍ إِلَى مَا فِي تِلْكَ الْقِرَاءَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ مِنَ الْمَعَانِي، وَهَذَا عَظِيمُ النِّفْعِ فِي بَابِ الْإِعْتِقَادِ، وَبَابِ الْأَحْكَامِ، بَلْ بَابِ الْآدَابِ، فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِي الْقِرَاءَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ مَا يُشِيرُ إِلَى الْآدَابِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البَقَرَةُ: ٨٣]، فَفِي قِرَاءَةِ سَبْعِيَّةٍ

أخرى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حَسَنًا﴾ [البقرة: ٨٣]، فينبغي أن يعتني طالبُ العلم بأحرفِ القراءات - في أقلِّ الأحوال - ولا ينبغي أن يكونَ جاهلاً بها، وهو أمرٌ يسيرٌ يُمكنُ أن يُدرِكهُ طالبُ العلم بتكرارِ النَّظَرِ في مُصحفٍ قد وُضِعَ على حاشيتهِ القراءاتُ الواردة في أحرفِ القرآنِ الكريم؛ فإنَّ ذلك يُطلِعُهُ على كثيرٍ من المعاني التي يَتَفَعُّ بها في أبوابِ العلم.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، ﴿فَهَدَى﴾: فدلّك وأرشدك، وأنزل عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم.

هذه الآية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ ممّا أرسل جماعة فيها الكلام إرسالاً حتى بلغ القول فيها ما لا يُحمد من التعرّض لجَنَابِ النَّبِيِّ ﷺ، والاكتفاء بالوارد في القرآن مُغْنٍ عن غيره؛ فإنّ هذه الآية فسّرتها آيتان في القرآن:

- فالجملَةُ الأولى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ فسّرها قولُ الله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلَكْتُبُ وَلَا الْإِيمَنُ﴾ [الشورى: ٥٢]؛ أي: غافلاً عمّا يُرادُ بك من الرسالة والنُّبوة.

- وقوله في تَمَتُّها: ﴿فَهَدَى﴾ فسّرها قولُ الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، فأعظم هداية أصابها النبي ﷺ هي هدايته إلى مقام النبوة والرسالة.

* ومن أعظم مسالك التفسير: «الاكتفاء بالقرآن الكريم في تفسير بعضه بعضاً»، ومن كلام أبي عبد الله أحمد بن حنبلٍ قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحديث يُفسّرُ بعضُه بعضاً»، وكقوله ذلك يُقال في القرآن: أن القرآن يُفسّرُ بعضُه بعضاً، وهو أهمُّ الموارد التي ينبغي أن يعتني بها طالبُ العلم في فهم القرآن الكريم، وهو منهلٌ ثرٌّ لا مُنتهى له بحسب ما يفتحُ اللهُ ﷻ للعبد من الفهم في كلام الله سبحانه وتعالى.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيرًا ﴿فَأَغْنَى﴾ بما ساق إليك من الرِّزْق، وقَنَّعَكَ به.

قوله: ﴿فَأَغْنَى﴾ بما ساق إليك من الرِّزْق، وقَنَّعَكَ به: فيه بيان أن الغنى التَّام مُرَكَّبٌ مِنْ شَيْئَيْنِ:

- أحدهما: رِزْقٌ يُحَصِّلُ به العبدُ مَصَالِحَهُ.

- والآخر: قَنَاعَةٌ تَقْطَعُ عن قلبه الطَّمَعُ فيما سواه.

فإذا رَزَقَ العبدُ رِزْقًا تَحَقَّقَ به مَصَالِحُهُ ثُمَّ قَارَنَهُ قَنَاعَتُهُ بما فَتَحَ اللَّهُ ﷻ لَهُ مِنَ الرِّزْقِ حَازَ الغنى التَّامَ، وإنْ فَاتَتْهُ القَنَاعَةُ فَإِنَّهُ مَهْمَا بَلَغَ مِقْدَارُ مَا يَصِلُهُ مِنْ رِزْقِ اللَّهِ لَمْ يَرَهُ شَيْئًا، وهذا المعنى هو المرادُ في قوله ﷻ في الصَّحِيح: «الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»؛ أي: أَنَّ الغنى - على الحقيقة - هو قَنَاعَةُ العبدِ بما يُوصِلُهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى إِلَيْهِ مِنَ الرِّزْقِ، وَتَشْتَدُّ حَاجَةُ الخَلْقِ إِلَى تَنْمِيَةِ القَنَاعَةِ فِي نفوسِهِمْ وَتَذْكِيرِهِمْ بِذَلِكَ فِي زَمَنِ المَالِ الْيَوْمِ، فَإِنَّ أَعْنَاقَ النَّاسِ قَدْ اشْرَأَبَتْ إِلَى الدُّنْيَا وَعَظُمَ تَعَلُّقُ قُلُوبِهِمْ بِهَا حَتَّى صَارَتْ حَدِيثُ الْخَاصَّةِ فَضْلًا عَنِ الْعَامَّةِ، فَتَجَدُّ فِي صُفُوفِ الْمُتَمَتِّنِينَ إِلَى الْعِلْمِ مَنْ يَكُونُ وَكَدُهُ مِنَ الْكَلَامِ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ أَضْرَبُ المَالِ وَأَنْوَاعُهُ وَأَحْوَالُ التَّجَارَاتِ حَتَّى تَصِيرَ هَجِيرَاهُ وَغَالِبَ حَدِيثِهِ، وَهَذَا مَذْمُومٌ فِي حَالِ الْعَامِّيِّ، فَكَيْفَ بِحَالِ الْمُتَنَسِّبِ إِلَى الْعِلْمِ؟! فَيَنْبَغِي أَنْ يَعْمُرَ الْعَبْدُ قَلْبَهُ بِالقَنَاعَةِ، وَأَنْ يَسْتَغْنِيَ بِاللَّهِ سبحانه وتعالى، وَأَنْ لَا يَلْهَثَ وَرَاءَ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الدُّنْيَا لَا مُنْتَهَى لَهَا، وَمَهْمَا أُوتِيَ الْعَبْدُ مِنْهَا فَإِنَّهُ لَا يَزَالُ طَامِعًا فِي الزِّيَادَةِ مِنْهَا، وَمَنْ لَمْ يَعْمُرْ قَلْبَهُ بِالقَنَاعَةِ فَإِنَّهُ يَشْقَى فِي حَيَاتِهِ، وَإِذَا اتَّخَذَ طَلَبُ الدُّنْيَا سَبِيلًا يُرَكِّبُ بِهِ الدِّينَ، فَإِنَّ ذَلِكَ شَرُّ مَرْكُوبٍ يَرْكَبُهُ النَّاسُ، وَقَدْ آلَ الْأَمْرُ إِلَى ذَلِكَ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَى الْعِلْمِ، فَإِنَّ غَضَبَتَهُمْ إِنَّمَا هِيَ لِلدُّنْيَا، وَحَمَاسَتَهُمْ إِنَّمَا هِيَ لِلدُّنْيَا، وَعِنَايَتُهُمْ إِنَّمَا هِيَ بِالدُّنْيَا، حَتَّى صُرِفَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ عَنْ شُغْلِ أَنْفُسِهِمْ بِمَا يُقَرِّبُهُمْ إِلَى اللَّهِ سبحانه وتعالى. واعلموا أَنَّ هَذَا الْأَمْرَ يَبْدَأُ مَعَ أَحَدِنَا صَغِيرًا حَتَّى يَكُونَ كَبِيرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنِ الْعَبْدُ فُطْنًا إِلَى إِصْلَاحِ قَلْبِهِ وَرِيَاضَةِ نَفْسِهِ فِيمَا يَتَعَاطَاهُ مِنْ أَمْرِ المَالِ فَإِنَّهُ يُفْسِدُهُ إِفْسَادًا عَظِيمًا، وَلَيْسَ جَمْعُ المَالِ مِمَّا يُدَمُّ، وَإِنَّمَا الَّذِي يُدَمُّ أَنْ يَكُونَ مُسْتَوَلِيًا عَلَى الْقَلْبِ فَتَكُونَ النَّفْسُ تَابِعَةً لَهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ [مَرِيَم: ٥٩]؛ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ لَمْ يُدْمُوا عَلَى تَنَاوُلِهِمُ الشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَةَ، وَإِنَّمَا ذُمُّوا عَلَى أَنَّهِمْ اتَّبَعُوهَا، أَي: جَعَلُوهَا حَاكِمَةً لَهَا مُتَمَلِّكَةً فِيهِمْ، يَأْتَمِرُونَ بِأَمْرِهَا وَيَنْتَهَوْنَ بِنَهْيِهَا، فَإِذَا بَلَغَتِ الشَّهْوَةُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةَ صَارَتْ مِنْهَا مَنَهِيًا عَنْهَا وَصَارَتْ وَبَالًا عَلَى الْعَبْدِ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

وَمَنْ آوَاكَ وَهْدَاكَ وَأَغْنَاكَ فَحَقُّهُ مَقَابِلَةٌ نِعْمَتِهِ بِالشُّكْرِ، وَمِنْهُ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾؛ أَي لَا تَغْلِبْهُ مُسِيئًا مَعَامَلَتَهُ، ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ﴾ عَنْ دِينٍ أَوْ دُنْيَا ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾؛ أَي تَزْجِرْ، بَلْ اقْضِ حَاجَتَهُ أَوْ رُدِّهِ بِرَفْقٍ، ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ مَخْبِرًا عَنْهَا، فَإِنَّ التَّحَدُّثَ بِنِعْمَةِ اللَّهِ، دَاعٍ لَشُكْرِهَا، وَسَبَبٌ فِي مَحَبَّةِ الْقُلُوبِ لِمَنْ أَسَدَاهَا، فَإِنَّ الْقُلُوبَ مَجْبُولَةٌ عَلَى مَحَبَّةِ الْمُحْسِنِ إِلَيْهَا.



تفسير

سُورَةُ الشَّرْحِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ • وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ • الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ • وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ • فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا • إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا • فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ • وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب •﴾

يقول الله تعالى - مُمْتَنًا عَلَىٰ رَسُولِهِ ﷺ -: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ استفهام تقرير؛ أي شرحنا صدرك للإسلام، وهو ناشئ عن شرح صدره الحسي، الذي وقع مرتين أولاهما في صغره لما كان مُسْتَرْضَعًا في بني سعد، والثانية ليلة أُسْرِيَ به في مكة بين يدي الإسرائِءِ رواهما مسلم، ووافقه البخاري في الثانية.

ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ - في بيان هذه الآية - أَنَّ الشَّرْحَ الْوَاقِعَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فِي صَدْرِهِ نَوْعَانِ:

* الْأَوَّلُ: شَرْحُ جِسْمَانِي، إِذْ شَقَّ صَدْرُهُ الشَّرِيفَ ﷺ مَرَّتَيْنِ:

- أُولَاهُمَا: فِي صِغَرِهِ لَمَّا كَانَ مُسْتَرْضَعًا فِي بَنِي سَعْدِ.

- وَالْأُخْرَى: فِي كِبَرِهِ لَيْلَةَ أُسْرِي بِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ بَيْتِ الْمَقْدِسِ؛ أَي: لَيْلَةَ الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ.

* الثَّانِي: شَرْحُ رَوْحَانِي، إِذْ حُشِيَ قَلْبُهُ ﷺ بِالْمَعَارِفِ الْإِيمَانِيَّةِ وَالْكَمَالَاتِ الدِّينِيَّةِ لَمَّا احْتَوَى عَلَيْهِ مِنْ كَمَالِ الْإِدْرَاكِ لِحَقَائِقِ الدِّينِ وَمُوَافَقَةِ أَحْوَالِ كَمَلِ خَلْقِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَالشَّرْحُ الْجِسْمَانِي تَوَطُّةٌ لِلشَّرْحِ الرُّوحَانِي؛ فَإِنَّهُ لَمَّا شَرَحَ صَدْرُهُ ﷺ حَسًّا حُشِيَ قَلْبُهُ ﷺ بِالْإِيمَانِ

وَمَعْرِفَةِ اللَّهِ ﷻ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿وَوَضَعْنَا؛ أَي حَطَطْنَا﴾ عَنْكَ وَزَرَكَ ﴿وَهُوَ الذَّنْبُ،﴾ الَّذِي أَنْقَضَ؛ أَي أَثْقَلَ ﴿ظَهَرَكَ﴾.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ فَأَعْلَيْنَا قُدْرَكَ، وجعلنا لك الثناء الحسن، بما أشاع الله من محاسن ذكره بين الناس، وبما نزل من القرآن ثناءً عليه وكرامةً له، وبإلهام الناس التحدث بما جبله الله عليه من المحامد في أوّل نشأته، ومن أعظم ذلك أن الله قرّن ذكره بذكره في الشهادتين، وله في قلوب أمته من المحبة والتعظيم بعد الله تعالى ما ليس لأحدٍ سواه.

وقوله: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ﴾ وهو الشدة ﴿يُسْرًا﴾ أي سهولةً، والفاء فيه فصيحةٌ، تُفصح عن كلامٍ مقدّر يدلُّ عليه الاستفهام التقريريُّ هنا، أي إذا علمتَ هذا وتقرّر؛ فاعلم أن اليسرَ مصاحبٌ للعسر، فالعسر الذي عهّدته وعلمته سيجعله الله يسرًا، والتّنكير للتّعظيم، وفي تكرارها بقوله: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تأكيدٌ لتحقيق اطّراد هذا الوعد وعمومه.

العُسْرُ المذكورُ - الذي وُعدَ النَّبِيُّ ﷺ بأنَّ يُقَارَنَهُ اليُسْرُ - هو ما كان به ﷺ مِنَ الْمَشَقَّةِ وَالْبَلَاءِ وَالْعَنَتِ فِي دَعْوَةِ الْخَلْقِ، فهو العُسْرُ المعهودُ في حَقِّهِ ﷺ، ذ(ال) في قوله تعالى: ﴿الْعُسْرُ﴾ يُرَادُ بِهَا الْعَهْدُ، وَالْعُسْرُ الْمَعْهُودُ الْمَعْرُوفُ فِي حَقِّهِ ﷺ هو ما لَقِيَهِ مِنْ شِدَّةٍ وَبَلَاءٍ وَعَنَتٍ فِي دَعْوَةِ الْخَلْقِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وَتَنْكِيرُ الْيُسْرِ فِي الْآيَتَيْنِ تَعْظِيمٌ لِمَا أَفَاضَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِ مِمَّا احْتَفَّ بِهِ مِنْ عَوْنِ اللَّهِ وَهُدَايَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَإِنَّ النِّكَرَةَ تَقَعُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ عَلَى مَوَاقِعَ، مِنْهَا إِرَادَةُ التَّعْظِيمِ، كَهَذِهِ الْآيَةِ؛ فَتُكْرَرُ الْيُسْرُ إِشَارَةً إِلَى تَعْظِيمِهِ. وَمَا يَذْكُرُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ مِنْ أَنَّ: (إِعَادَةُ الْعُسْرِ مُعَرِّفًا فِيهَا إِعْلَامًا بِأَنَّهُ عُسْرٌ وَاحِدٌ - فَاَلْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ هُوَ الْمَذْكُورُ فِي الْآيَةِ الْأُولَى - وَأَنَّ تَنْكِيرَ الْيُسْرِ فِي الْآيَتَيْنِ إِعْلَامٌ بِتَجَدُّدِهِمَا، وَأَنَّ الْيُسْرَ الثَّانِي غَيْرُ الْيُسْرِ الْأَوَّلِ)، وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ فِيهِ نَظَرٌ؛ لِأَنَّ مَحَلَّ هَذِهِ الْقَاعِدَةِ: مَا انفَصَلَ مِنَ الْجُمْلِ وَتَعَدَّدَ، أَمَّا مَا تَكَرَّرَ فِي مَحَلٍّ وَاحِدٍ فَإِنَّهُ يَكُونُ لِتَوْكِيدِ الْمُتَقَدِّمِ مِنْهُمَا، فَلَيْسَ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى عُسْرٍ مُتَقَدِّمٍ وَيُسْرٍ جَدِيدٍ؛ بَلِ الْآيَةُ الثَّانِيَةُ - فِي مَعْنَاهَا - هِيَ كَالْآيَةِ الْأُولَى، وَأُعِيدَتْ تَعْظِيمًا. نَبَّهَ إِلَى هَذَا الطَّاهِرُ بْنُ عَاشُورٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ.

* وَمَا يُرَوَى «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرِينَ» لَا يَثْبُتُ فِيهِ شَيْءٌ مَرْفُوعٌ وَلَا مَوْقُوفٌ، فَالْمُعَوَّلُ عَلَى الْوَضْعِ اللَّغْوِيِّ، وَالْوَضْعُ اللَّغْوِيُّ - فِي هَذَا الْمَقَامِ - لَا يَزِيدُ عَنْ كَوْنِ الْآيَةِ الثَّانِيَةِ تَوْكِيدًا لِلْآيَةِ الْأُولَى، وَلَيْسَ فِيهَا مَعْنَى مُتَجَدِّدٍ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللهُ:

ثُمَّ أَمَرَ اللهُ رَسُولَهُ ﷺ بِشُكْرِهِ، وَالْقِيَامِ بِوَاجِبِ نِعَمِهِ، فَقَالَ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَأَنْصَبْ﴾؛ أَيِ إِذَا فَرَغْتَ مِنْ عَمَلٍ بِإِتِمَامِهِ؛ فَأَقْبِلْ عَلَى عَمَلٍ آخَرَ؛ لِتَعْمُرَ أَوْقَاتَكَ كُلَّهَا بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَأَرْغَبْ﴾ فَأَعْظِمِ الرَّغْبَةَ إِلَيْهِ فِي مُرَادَاتِكَ مُقْبِلًا عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: ﴿مُقْبِلًا عَلَيْهِ﴾: اسْتَفِيدَ وَصَفُ الْإِقْبَالِ مِنْ تَعْدِيَةِ الْفِعْلِ بِ(إِلَى)، فَلَمَّا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَأَرْغَبْ﴾ أَشْرَبَ فِعْلُ الرِّغْبَةِ مَعْنَى زَائِدًا عَنِ الطَّمَعِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: وَهُوَ الْإِقْبَالُ عَلَيْهِ؛ فَإِنَّ صِدْقَ الْعَبْدِ فِي طَمَعِهِ فِيمَا عِنْدَ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَا يَتَحَقَّقُ إِلَّا بِإِقْبَالِهِ عَلَيْهِ.

* وَإِشْرَابُ الْأَفْعَالِ الْمَعْنَى هُوَ مَذْهَبُ الْبَصْرِيِّينَ، وَهُوَ مَذْهَبٌ حَسَنٌ فِي فَهْمِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ. فَيَتَجَدَّدُ فِي الْفِعْلِ مَعْنَى لَا يَتَبَادَرُ مِنْ وَضْعِهِ اللَّغْوِي، عُرِفَ ذَلِكَ بِمَا عُذِّي بِهِ الْفِعْلُ، فَيُسْتَفَادُ مِنْهُ مَعْنَى جَدِيدًا لَيْسَ فِي مَعْنَى الْفِعْلِ عِنْدَ الْإِنْفِرَادِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾ فَإِنَّ تَقْدِيرَ الْكَلَامِ: (يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ) وَلَكِنْ لَمَّا عُذِّي بِالْبَاءِ كَانَ فِي ذَلِكَ إِشْرَابًا لِلْفِعْلِ وَإِشْبَاعًا لَهُ بِمَعْنَى مُرَادٍ: وَهُوَ حُصُولُ الْإِرْوَاءِ، فَهُمْ يَشْرَبُونَ مِنْهَا حَتَّى يَرْتَوْنَ وَتَحْصُلُ لَهُمْ بِهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

تفسيرُ

سُورَةِ التِّينِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ • وَطُورِ سَيْنِينَ • وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ • لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ • ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ • إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ • فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدَ بِالِّدِينِ • أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾

أقسم الله بالشجرتين المعروفتين التين والزيتون فقال: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾، مُريدًا منابتهما وهي أرض الشام، ثم أقسم بجبل سيناء فقال: ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾ وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى عليه الصلاة والسلام، و«سينين» لغة في سيناء، وهي صحراء بين مصر وبلاد فلسطين، ثم أقسم أخرى فقال: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهو مكة المكرمة لأمن الناس فيها، والإشارة إليه للتعظيم، ولأنَّ نزول السورة واقع فيه، وهذه المواضع هي مواطن أكثر الأنبياء، فهي أرض النبوات ومهبط الرسالات.

قوله: (فقال: ﴿وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونِ﴾، مُريدًا منابتهما وهي أرض الشام) المرشدُ إلى هذه الإرادة: قرنها بموضعين هما ﴿وَطُورِ سَيْنِينَ﴾؛ أي: جبل سيناء، و﴿الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾؛ أي: مكة المكرمة، فلما قرن ذكر الشجرتين في هذين الموضعين علم أن المراد من ذكرهما الإشارة إلى الوطن الذي ينبثق فيه عادة، وهي بلاد الشام، فتكون السورة قد استفتحت بذكر مواضع ثلاثة، هي:

- بلاد الشام

- وبلاد مصر

- ومكة المكرمة

وقوله: (فقال: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهو مكة المكرمة لأمن الناس فيها، والإشارة إليه للتعظيم) يعني بذكر اسم الإشارة: ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ فإنَّ تقدير الكلام يُمكن أن يكون: (والبلد الأمين)، لكن ذكر اسم الإشارة تنويهاً بمقام البلد الحرام وإعظاماً وإجلالاً له، مع ما فيه من الإعلام بأن السورة نازلة فيه.

وقوله: (وهذه المواضع هي مواطن أكثر الأنبياء) أي: أن الله سبحانه وتعالى ذكر بلاد الشام أولاً بالإشارة إلى التين والزيتون، ثم ذكر طور سيناء، ثم ذكر مكة المكرمة، مُشيرًا إلى أراضٍ عظيمة وقعت فيها نبوة أكثر الأنبياء، ولا تنحصر نبوة الأنبياء فيها؛ لأن من الأنبياء من كان خارج هذه المواضع الثلاثة: وهو هود في جهة حضرموت، وأيضًا إبراهيم الخليل في جهة بابل في ابتداء نبوته عليه الصلاة والسلام، وهي من بلاد العراق. والصواب أن يقال: (هي بلاد أكثر النبوات) وليست بلاد النبوات؛ لأن النبوات لا تنحصر فيها، وكذلك لا يقال: (هي أرض أولي العزم)؛ لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام من أولي العزم، وكان ابتداء دعوته في البلاد العراقية، ثم كان آخر أمره في بلاد الشام بمدينة الخليل المعروفة في فلسطين، هذا على قول الجمهور: أن أولي العزم هم الخمسة المشهورون، وهم: (نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد ﷺ)، وليس على ذلك دليل صحيح صريح، والصواب أن أولي العزم هم جميع الأنبياء، فقله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، ﴿مِنْ﴾: ليست تبعية وإنما بيانية، فجميع رسل الله ﷻ كانت لهم عزيمة ماضية في إبلاغ ما أمروا به بمعونة الله وتأييده لهم، وهذا قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم من التابعين، واختاره علي بن مهدي الطبري شيخ الثعلبي نقله عنه في تفسيره «الكشف والبيان».



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ ذَكَرَ جَوَابَ الْقِسْمِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فسوّاه الله وعدّله، وفطره على توحيده، ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ في نار جهنم إن كفر.

قَوْلُهُ: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ في نار جهنم إن كفر، اختيار كَوْنِ السُّفْلِ المذكور في الآية هو الرُّدُّ إلى نار جهنم إذا كفر العبد: هو المناسبُ للامتنانِ عليه، فإنَّ الله امتنَّ عليه فقال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ فإذا كانت هذه الآية للامتنان، فإنَّ المناسبَ لِمَا بعدها أن يكون نَزْعُهُ إذا كفر العبد، وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ فإنَّ الله خَلَقَ الإنسانَ في أحسنِ تقويمٍ مُمْتَنًّا عليه فَمَتَّى تَجَبَّرَ وَكَفَرَ اسْتَحَقَّ أَنْ يُنَزَعَ مِنْ هَذَا الْكَمَالِ، وَأَعْظَمُ مَا يُنَزَعُ بِهِ الْكَمَالُ أَنْ يُرَدَّ إِلَى عَذَابِ جَهَنَّمَ.

* والتقويمُ الأحسنُ الذي خُلِقَ فِيهِ الْإِنْسَانُ نَوْعَانِ:

- أحدهما: تقويمُ صورته الظاهرة ^(١)؛ وهو المذكورُ في قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ • الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّلَكَ • فَعَدَلَكَ • فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الإنفطار: ٦-٨].
- والآخر: تقويمُ الأحسنِ المتعلق بالحقيقة الباطنة؛ وهي بجعل الإنسان على الفطرة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآية.

فَقُوِّمَ الْإِنْسَانُ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ: بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَةٍ، فَإِذَا انْخَلَعَ الْإِنْسَانُ مِنْ ذَلِكَ التَّقْوِيمِ الْأَحْسَنِ وَأَبَى، لَمْ يَكُنْ لَهُ جَزَاءٌ إِلَّا الرُّدُّ إِلَى السُّفْلِ بِكَوْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الْمُنَاسِبُ لِسِيَاقِ الْآيَةِ. وَأَمَّا تَفْسِيرُهُ بِالرُّدِّ إِلَى الْهَرَمِ وَكِبَرِ السِّنِّ فَإِنَّهُ لَا يُنَاسِبُ سِيَاقَ الْآيَةِ، إِذْ ذَلِكَ يَضَعُفُ بِالِاسْتِثْنَاءِ الْوَارِدِ بَعْدَهُ.



^(١) قال الشيخ في هذا الموضع: (تقويم صورته الباطنة)، ولما راجعت الشروح الأخرى تبين لي أن المقصود (تقويم صورته الظاهرة)، وهذا ظاهر إذ قال بعد ذلك: (فقوِّم الإنسانُ في أحسنِ صورةٍ: بَاطِنَةٍ وَظَاهِرَةٍ)، فالحمد لله رب العالمين.

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فَإِنَّهُمْ لَا يُرَدُّونَ إِلَيْهَا، بَلْ جَزَاؤُهُمْ مَا أَخْبَرَ عَنْهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾؛ أَي لَّهُمْ أَجْرٌ لَا يَشُوْبُهُ كَدَرُ الْمَنِّ، وَلَا يَلْحَقُهُ الْانْقِطَاعُ، وَذَلِكَ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالذِّينِ﴾ وَهُوَ الْحِسَابُ وَالْجَزَاءُ عَلَى الْأَعْمَالِ، فَأَيُّ شَيْءٍ يَجْعَلُكَ أَتْيَافِ الْإِنْسَانِ مُكَذِّبًا بِمَا جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ مِنَ الشَّرَائِعِ وَالْمَنَاهِجِ، وَمَا بَشَّرَتْ بِهِ وَأَنْذَرَتْ مِنَ الْجَزَاءِ بِالْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَأَنْتَ قَدْ خُلِقْتَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ﴾ فِي الْفَضْلِ وَالْقَضَاءِ بَيْنَ عِبَادِهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَمَنْ كَفَرَ؟!

قَوْلُهُ: (فَإِنَّهُمْ لَا يُرَدُّونَ إِلَيْهَا) أَي: لَا يُرَدُّونَ إِلَى النَّارِ.

* وَمِنْ بَدَائِعِ كَلَامِ ابْنِ الْقَيِّمِ قَوْلُهُ: (إِنَّمَا جُعِلَتِ النَّارُ لِإِذَابَةِ الْقُلُوبِ الْقَاسِيَةِ) أَنْتَهَى كَلَامُهُ؛ أَيَّ أَنَّ الْقَلْبَ الْقَاسِيَ الَّذِي لَمْ يَلِنْ فِي الدُّنْيَا إِلَى مَا جَاءَ مِنَ النُّورِ وَالْهُدَى بِبِعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ وَإِرْسَالِهِ إِلَيْنَا، فَإِنَّهُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُذَيِّبُهُ وَيُلِينُهُ إِلَّا عَذَابُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.



تفسير

سُورَةُ الْعَلَقِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ • أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ • كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ • إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ • أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ • عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ • أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ • أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ • أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ • أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ • كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ • نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ • فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ • سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ • كَلَّا لَا تَطِعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝﴾

صَدْرُ هَذِهِ السُّورَةِ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ هُوَ أَوَّلُ الْقُرْآنِ نَزُولًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَ ذَلِكَ فِي غَارِ جَبَلِ حِرَاءٍ بِمَكَّةَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَتَعَبَّدُ فِيهِ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ، فَجَاءَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ لَهُ: اقْرَأْ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَهُ فغَطَّهُ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ، فَقَالَ: اقْرَأْ فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَهُ فغَطَّهُ الثَّانِيَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ فَأَخَذَهُ فغَطَّهُ الثَّلَاثَةَ حَتَّىٰ بَلَغَ مِنْهُ الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ، فَقَالَ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ثَبَتَ هَذَا فِي الصَّحِيحِينَ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

قَوْلُهُ: (وَكَانَ ذَلِكَ فِي غَارِ جَبَلِ حِرَاءٍ بِمَكَّةَ): (حِرَاءُ): اسْمٌ لِلْجَبَلِ وَلَيْسَ اسْمًا لِلْغَارِ، وَقَدْ يُحْدَفُ لِلْعِلْمِ بِهِ فَيَقَالُ: (غَارُ حِرَاءٍ) عَلَى تَقْدِيرِ (غَارُ جَبَلِ حِرَاءٍ). أَمَّا تَسْمِيَةُ الْجَبَلِ (جَبَلُ النُّورِ)، وَتَسْمِيَةُ الْغَارِ (غَارُ حِرَاءٍ)؛ فَإِنَّهَا تَسْمِيَةُ حَادِثَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ، لَعَلَّهَا شَهَرَتْ فِي وِلَايَةِ الْعُثْمَانِيِّينَ ثُمَّ شَاعَ الْأَمْرُ إِلَى الْيَوْمِ.

* وَالْمُخْتَارُ فِي أَسْمَاءِ الْمَوَاضِعِ: الرُّجُوعُ إِلَى مَا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْهَا؛ فَإِنَّ الْبِلَادَ الَّتِي تَعَلَّقَتْ بِهَا الْأَحْكَامُ غَالِبًا هِيَ بِلَادُ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ أَعْرَفُ بِأَسْمَاءِ مَوَاطِنِهِمْ وَمَنَازِلِهِمْ مِنْ غَيْرِهِمْ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَقَّقَ طَالِبُ الْعِلْمِ لِمَعْرِفَةِ أَسْمَاءِ الْمَوَاطِنِ الَّتِي عُلِّقَتْ بِهَا الْأَحْكَامُ وَفَقَ مَا عَرَفَتْهُ الْعَرَبُ، لَا بِحَسَبِ مَا يَسْتَجِدُّ فِي حَوَادِثِ الْأَيَّامِ؛ فَإِنَّ مِنَ الْمُسْتَجِدِّ الْيَوْمَ أَسْمَاءُ لَمْ تَكُنْ قَبْلُ تَعْرِفُهَا الْعَرَبُ أَوْ حُدُودُ لَمْ تَكُنْ الْعَرَبُ تُنْهِئُ إِلَيْهَا هَذِهِ الْمَوَاطِنَ، فَإِذَا عُلِّقَتْ الْأَحْكَامُ بِمَا حَدَثَ رُبَّمَا تُؤْهِمُ خِلَافَ الصَّحِيحِ فِي فَهْمِ الْخَطَابِ الشَّرْعِيِّ.

* كَالْيَمَنَ مثلاً: فَإِنَّ الْيَمَنَ صَارَتْ الْيَوْمَ - فِي الْوَضْعِ الْمَعْرُوفِ - مُخْتَصَّةٌ بِبَعْضِ بِلَادِ الْيَمَنِ الَّذِي جَعَلْتَهُ الْعَرَبُ اسْمًا لِتِلْكَ الْبُقْعَةِ الَّتِي تَتِيَّامَنُ عَنْ مَكَّةَ الْمَكْرَّمَةِ حَتَّى تَنْتَهِيَ إِلَى بَحْرِ الْعَرَبِ، فَإِنَّ هَذِهِ الْبُقْعَةَ اسْمُهَا جَمِيعًا الْيَمَنُ، وَمَا اخْتَصَّ مِنْهَا الْيَوْمَ هُوَ بَعْضُ الْيَمَنِ، فَإِذَا فَهِمَ الْعَبْدُ فَضَائِلَ الْيَمَنِ أَنَّهَا مُخْتَصَّةٌ بِالْبُقْعَةِ الْمُسَمَّاتِ الْيَوْمَ = مَنَعَ حَقَّ كَثِيرِينَ هُمْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي تَعْرِفُهَا الْعَرَبُ بِاسْمِ الْيَمَنِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَتَحَقَّقَ طَالِبُ الْعِلْمِ بِمَعْرِفَةِ مَوَاطِنِ الْعَرَبِ بِالْأَسْمَاءِ الَّتِي سَمَّيَتْهَا الْعَرَبُ، لِأَنَّهَا هِيَ الَّتِي عُלِّقَتْ بِهَا الْأَحْكَامُ.

* مثلاً: الْكُوَيْتُ عُلِّقَتْ بِهَا فِي الشَّرْعِ أَحْكَامٌ وَلَكِنْ مَا جَاءَتْ بِاسْمِ الْكُوَيْتِ، جَاءَتْ بِاسْمٍ آخَرَ، فَإِذَا بُحِثَ عَنْ هَذِهِ الْأَحْكَامِ بِاعْتِبَارِ الْكُوَيْتِ لَمْ يُوجَدْ شَيْءٌ، لَكِنْ إِنْ عُلِمَ هَذَا الْمَوْضِعُ مَا يُسَمَّى عِنْدَ الْعَرَبِ فَهَمَّتِ الْأَحَادِيثُ الْوَارِدَةُ فِيهِ، وَكَذَا بِلَادُ الشَّامِ، فَإِنَّ بِلَادَ الشَّامِ الْيَوْمَ صَارَتْ دَوْلًا مُتَعَدِّدَةً، وَهِيَ فِي الشَّرْعِ اسْمٌ لِمَوْضِعٍ وَاحِدٍ تَتَعَلَّقُ بِهِ الْأَحْكَامُ جَمِيعًا، فَمَا تَسْمَعُهُ الْيَوْمَ مِنْ تَخْصِيصِ فَضَائِلِ الشَّامِ بِالْمُسَمَّيِ الْيَوْمَ بِ(سُورِيَا) هُوَ حِرْمَانٌ لِكَثِيرٍ مِنْ مَوَاضِعِ الشَّامِ مِنَ الْفَضَائِلِ الشَّرْعِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ لَهَا.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

فَأَمَرَهُ فِي فَاتِحَتِهَا أَنْ يَقْرَأَ مُسْتَعِينًا بِاللَّهِ، مُسْتَصْحِبًا الْفَهْمَ وَمِلَاحِظَةً جَلَالَهُ، مَأْذُونًا لَهُ، وَقِيلَ لَهُ: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؛ أَيِ خَلَقِ الْخَلْقَ جَمِيعًا، وَمِنْهُمْ الْإِنْسَانُ، فَإِنَّهُ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ وَالْعَلَقَةُ هِيَ الْقِطْعَةُ مِنَ الدَّمِ الْغَلِيظِ، وَذَكَرُ خَلْقِ الْإِنْسَانِ بَعْدَ الْأَمْرِ بِالْقِرَاءَةِ: إِشَارَةٌ إِلَى الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ، فَمَنْ خَلَقَ الْإِنْسَانَ لَمْ يَكُنْ لِيُتْرَكَ سُدًى، بَلْ سَيَأْمُرُهُ وَيَنْهَاهُ، وَذَلِكَ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْكُتُبِ.

ثُمَّ قَالَ: ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ الْمَتَّصِفُ بِغَايَةِ الْكَرَمِ، وَمَنْ كَرَّمَهُ ﷻ أَنَّهُ هُوَ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ أَخْرَجَهُ مِنْ بطنِ أُمِّهِ لَا يَعْلَمُ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَهُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ، فَعَلِمَ مَا لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُهُ مِنْ قَبْلُ، وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ عِلْمِهِ تَعْلِيمُهُ الْقَلَمَ، وَهُوَ الْخَطُّ وَالْكِتَابَةُ.

وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ الظُّلُمَ الْجَهْلَ يُطْغَى مُتَجَاوِزًا حَدَّهُ، وَيُعْرِضُ عَمَّا أُمِرَ بِهِ وَنُهِيَ عَنْهُ، إِذَا رَأَى نَفْسَهُ غَنِيًّا بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۚ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۚ

ثُمَّ تَهَدَّدَهُ وَتَوَعَّدَهُ فَقَالَ: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾؛ أَيِ إِلَى اللَّهِ الْمَصِيرِ وَالْمَرْجِعِ، وَسَيُجَازِي كُلَّ إِنْسَانٍ بِعَمَلِهِ.

وَمِنْ جِنْسِ الْإِنْسَانِ مَنْ تَسَوَّاهُ حَالُهُ فَيُعَارِضُ الْأَمْرَ وَالنَّهْيَ فَوْقَ إِعْرَاضِهِ عَنْهُ، كَمَنْ يَنْهَىٰ عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، الْمَذْكُورِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۚ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾، فَتَوَعَّدَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَرَأَيْتَ﴾ أَيُّهَا النَّاهِي ﴿إِنْ كَانَ﴾ الْعَبْدُ الْمَصْلِي ﴿عَلَىٰ الْهُدَىٰ ۚ أَوْ أَمَرَ﴾ غَيْرَهُ ﴿بِالتَّقْوَىٰ﴾ أَيْسَتَقِيمُ أَنْ يُنْهَىٰ مَنْ هَذَا وَصُفُّهُ؟! أَرَأَيْتَ أَعْجَبَ مِنْ طُغْيَانِ هَذَا النَّاهِي؟!!

﴿أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ﴾ النَّاهِي بِالْحَقِّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ فَأَعْرَضَ عَنِ الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ عَمَلَهُ؟ فَهُوَ مُطَّلِعٌ عَلَيْهِ مُحِيطٌ بِهِ!، أَفَلَا يَخَافُ اللَّهُ وَيَخْشَىٰ عِقَابَهُ؟!!

وَلَكِنْ لَمْ يَنْزَجِرْ بِالْوَعِيدِ؛ فَلْيَسَعُهُ التَّهْدِيدُ إِنْ اسْتَمَرَّ عَلَىٰ حَالِهِ: ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾ عَمَّا يَقُولُ وَيَفْعَلُ ﴿لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ﴾؛ أَيِ لَنَأْخُذَنَّ بِنَاصِيَتِهِ - وَهِيَ مُقَدَّمُ شَعْرِهِ - أَخْذًا عَنِيفًا، فَالْسَّفْعُ: الْقَبْضُ الشَّدِيدُ بِجَذْبٍ، وَاسْتَحَقَّتْهُ نَاصِيَتُهُ لِاتِّصَافِهَا بِوَصْفَيْنِ هُمَا الْمَذْكُورَانِ فِي قَوْلِهِ: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ فَهِيَ كَاذِبَةٌ فِي قَوْلِهَا، خَاطِئَةٌ فِي فِعْلِهَا، ﴿فَلْيَدْعُ﴾ هَذَا الْأَثِيمُ ﴿نَادِيَهُ﴾ وَهُمْ أَهْلُ مَجْلِسِهِ؛ فَإِنَّا ﴿سَنَدْعُ﴾ الرِّبَانِيَّةَ وَهُمْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، لِيَأْخُذُوهُ وَيَعَاقِبُوهُ، سَمُّوا زَبَانِيَّةً لِأَنَّهُمْ يَزُبُّونَ أَهْلَ النَّارِ؛ أَيِ يَدْفَعُونَهُمْ بِشِدَّةٍ.

والآيات السابقة نزلت في شأن أبي جهل حين نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة وتهديده، روى الترمذي والنسائي في «السنن الكبرى» بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام فقال: يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد! بأي شيء تهددني؟ أما والله إنني لأكثر هذا الوادي نادياً؛ فأنزل الله: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ ٥ سَدْعُ الزَّبَانِيَةِ ﴿٦﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو دعا ناديه لأخذته ملائكة العذاب من ساعته، وأصله في البخاري مختصراً.

ولما فرغ من وعيد الناهي وتهديده أتبعه بأمر المنهي - وهو العبد المصلي - أن لا يطيع ناهيه فقال: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ فيما نهاك عنه، ثم أمره بما فيه فلاحه فقال: ﴿وَأَسْجُدْ﴾ لربك ﴿وَأَقْتَرِبْ﴾ منه بالصلاة؛ فإن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، ففي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد؛ فأكثروا الدعاء».

قوله: (يُصَلِّي عند المقام): هذا من المواطن التي يحتاجها الإنسان في معرفتها، فالمقام الذي كان يصلي عنده النبي ﷺ كان مُلاصِقاً للبيت، ولذلك المقام الموجود اليوم لو صَلَّيْتَ أَمَامَهُ فَأَنْتَ تَكُونُ قَدْ صَلَّيْتَ خَلْفَ المقام الذي كان. المقام الذي كان، كان مُلاصِقاً للبيت وإنما أُخِّرَ عنه. والمقام الذي هو المقام - ممَّا فيه أثر إبراهيم عليه الصلاة والسلام فيما سَلَفَ - قَدْ ذَهَبَ وَزَالَ، وإنَّما جُعِلَ هذا تَذْكَارًا مَحَلَّهُ، وإلَّا فَإِنَّ المَقَامَ الذي عَرَفْتُهُ الْعَرَبُ وَبَقِيَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ ذَهَبَ فِي بَعْضِ السُّيُولِ التي اجْتَالَتْ الْبَيْتَ الْحَرَامَ.

والمقصود: أن تعرف موضع المقام وما تعلَّقَ به من أحكام، وأنه كان مُلاصِقاً للكعبة المُشَرَّفَةِ ثم أُخِّرَ عنها مراراً حتى انتهى إلى هذا الموضع.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْقَدْرِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ • لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ • تَنْزِيلُ الْمَلَكِ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِّنْ كُلِّ أَمْرٍ • سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾
يُخْبِرُنَا اللَّهُ ﷻ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عَنْ أَنْزَالِ الْقُرْآنِ، فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيِ الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَفِي إِسْنَادِ الْإِنْزَالِ إِلَى اللَّهِ تَشْرِيفٌ عَظِيمٌ لِلْقُرْآنِ، ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أَيِ الشَّرَفِ الْعَظِيمِ.

قَوْلُهُ: (فَيَقُولُ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ أَيِ الْقُرْآنِ جُمْلَةً وَاحِدَةً، مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا) فَالْإِنْزَالُ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ هُوَ إِنْزَالُ الْقُرْآنِ مَكْتُوبًا مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَلَيْسَ ابْتِدَاءُ تَنْزِيلِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ؛ بَلِ الْمُرَادُ أَنَّهُ نَزَلَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَكْتُوبًا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ أي الشرف العظيم، وهو اسمٌ جعله الله لليلة التي أنزل فيها القرآن، ولم تكن معروفةً عند المسلمين، فذكرها بهذا الاسم تشويقاً لمعرفةا، ولذلك أتبعه بقوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ فاستفهم عنها تفخيماً لشأنها، وتعظيماً لمقدارها.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: أَنْزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، ثُمَّ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً، قَالَ: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]، وَقَرَأَ: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]. رواه النسائي في «السنن الكبرى»، وإسناده صحيح.

[ذَكَرَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي هَذَا الْأَثَرِ إِنزَالَيْنِ اثْنَيْنِ]:

– الْأَوَّلُ: إِنزَالُهُ مَكْتُوبًا.

– وَالثَّانِي: أَنَّهُ أُنْزِلَ بَعْدَ ذَلِكَ فِي عِشْرِينَ سَنَةً مُتَفَرِّقًا، وَهَذَا إِنزَالُهُ تَكْلِيمًا؛ أَي أَنَّ اللَّهَ ﷻ تَكَلَّمَ بِهِ فَسَمِعَهُ جِبْرِيلُ ثُمَّ سَمِعَهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ جِبْرِيلَ.

* فَإِنزَالُ الْقُرْآنِ نَوْعَانِ:

– أَحَدُهُمَا: إِنزَالُ كِتَابَةٍ.

– وَالْآخَرُ: إِنزَالُ تَكْلَمٍ.

فَالْإِنزَالُ لَهُ كِتَابَةٌ كَانَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ لَمَّا أُنْزِلَ مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَجُعِلَ فِي بَيْتٍ فِيهَا. وَأَمَّا إِنزَالُ التَّكْلَمِ، فَإِنَّهُ بَقِيَ عِشْرِينَ سَنَةً وَأَكْثَرَ بِاعْتِبَارِ الْمُدَّةِ الَّتِي بَقِيَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهَا حَيًّا بَعْدَ ابْتِدَاءِ الْوَحْيِ، وَهِيَ ثَلَاثُ وَعِشْرُونَ سَنَةً. وَلِذَلِكَ الْإِنزَالُ – الَّذِي فِي رَمَضَانَ – فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ هُوَ إِنزَالُ كِتَابَةٍ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

وهي ليلةٌ مباركةٌ من ليالي رمضان؛ قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وسميت ليلةُ القدر لشرفها، ولأنَّه يُقدَّر فيها ما يكون بعدها من المقادير كالأجال والأرزاق.

وفي تشریف زمانِ إنزاله تشریفٌ ثانٍ للقرآن يُظهرُ علوَّ قدره عند الله تعالى.

ذكر المصنّف في تفسير هذه السورة أنَّ تعظيم القرآن وقع فيها من جهتين:
أولاهما: إسنادُ إنزاله إلى الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾، فالمنزّل للقرآن هو الله سبحانه وتعالى.
والأخرى: في تشریفه بالإنزال في زمنٍ مُعظَّم في قوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ أَخْبَرَ اللَّهُ عَنْ فَضْلِهَا بِقَوْلِهِ: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ فالقيام فيها إيماناً واحتساباً خيراً من عمل ألف شهر ليس فيها ليلة قدر، ومجموع مدتها ثلاث وثمانون سنة، وأربعة أشهر.

قَوْلُهُ: (فَالْقِيَامُ فِيهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ قَدْرٍ) إِعْلَامٌ بِأَنَّ الْعَمَلَ الْمَأْمُورَ بِهِ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ هُوَ عَمَلٌ مَخْصُوصٌ: وَهُوَ الْقِيَامُ.

وَهُنَاكَ فَرْقٌ بَيْنَ قَوْلَيْهِ: (فَالْقِيَامُ فِيهَا إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا خَيْرٌ مِنْ عَمَلِ أَلْفِ شَهْرٍ) وَقَوْلِ: (الْعَمَلُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ الْعَمَلِ فِي أَلْفِ شَهْرٍ)، وَهُوَ أَنَّ [الثاني عامٌّ]، وَالْأَوَّلُ يَخْتَصُّ بِالْقِيَامِ.

* وَالصَّحِيحُ: التَّخْصِصُ بِالْقِيَامِ؛ لِأَنَّ الْأَدْلَةَ وَرَدَتْ بِذَلِكَ، فَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي «الصَّحِيحِينَ»: «مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا» وَلَمْ يُذَكَّرْ عَمَلٌ آخَرُ، فَالْعَمَلُ الْمَشْرُوعُ فِيهَا هُوَ قِيَامُهَا، وَأَمَّا الْعُمُومُ فَلَا دَلِيلَ عَلَيْهِ. فَالْإِنْسَانُ يُؤَمِّرُ بِأَن يَهْتَبِلَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ بِالْقِيَامِ، أَمَّا أَنْ يُصَرَّفَ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ الْخَيْرِ، فَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ خَيْرًا إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ هَذَا وَقْتُهَا.

فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ: رَوَى أَصْحَابُ السُّنَنِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا قَالَتْ: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ أَدْرَكْتُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ فَمَا أَقُولُ؟»، فَقَالَ ﷺ: «قُولِي: «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»^(١). هَذَا إِيرَادُ فَكَيْفٍ نَجِيبٍ عَنْهُ؟

نُجِيبُ عَنْهُ بِجَوَابَيْنِ:

- أَحَدُهُمَا: مِنْ جِهَةِ الدَّرَايَةِ.

- وَالْآخَرُ: مِنْ جِهَةِ الرِّوَايَةِ.

* فَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الدَّرَايَةِ فَيُقَالُ: إِنَّ الدُّعَاءَ فَرْدٌ مِنْ أَفْرَادِ الصَّلَاةِ، فَمِنْ أَعْظَمِ الدُّعَاءِ: الدُّعَاءُ فِي الصَّلَاةِ. تَقَدَّمَ عِنْدَنَا حَدِيثُ: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ»، فَمِنْ أَعْظَمِ الدُّعَاءِ أَنْ يَكُونَ فِي الصَّلَاةِ. * وَالْآخَرُ مِنْ جِهَةِ الرِّوَايَةِ: وَهُوَ أَنَّ هَذَا الْحَدِيثَ - مَعَ شُهْرَتِهِ - حَدِيثٌ ضَعِيفٌ؛ فَإِنَّ إِسْنَادَهُ مُنْقَطِعٌ.



^(١) كلمة (كَرِيمٍ) بَعْدَ قَوْلِ «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ»: هَذِهِ لَا أَصْلَ لَهَا، وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي بَعْضِ الطَّبَعَاتِ لِسُنَنِ التِّرْمِذِيِّ، وَهِيَ لَا أَصْلَ لَهَا.

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

وتلك اللَّيلة هي في رمضان، وفي العشر الأواخر منه، وأرجاها: أوتارُها، وهي باقيةٌ في كل سنةٍ إلى قيام الساعة.

ثم ذكر الله فضلاً آخرَ لها في قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾ من السماء، ﴿وَالرُّوحُ فِيهَا﴾ أي في تلك اللَّيلة والروح هو جبريلُ، ﴿يَاذُنِ رَبِّهِمْ﴾ أي بأمره ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ قضاه الله في تلك السنة إلى السنة التي بعدها، وتلك اللَّيلة ﴿سَلَامٌ هِيَ﴾ أي سلامةٌ، والسلامة تشمل كلَّ خيرٍ يتَّصل، ﴿حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ فمُبتدؤها: غروب الشمس، ومُنتهاها: طلوع الفجر، وفي التعريف بمُنتهاها حثٌّ على اغتنام فضلها قبل انتهاء وقتها.

قوله: (وفي التعريف بمُنتهاها حثٌّ على اغتنام فضلها قبل انتهاء وقتها)؛ أي أَنَّ الله ﷻ أشار إلى الغاية التي تنتهي إليها تلك اللَّيلة - وهي طلوعُ الفجر - دُونَ ذكرِ المُبتدأ اغراءً للمُبادرة إلى العملِ الصَّالح فيها، فذكرُ المُنتهي فيه إيقاظٌ أعظم - إلى لزومِ العملِ الصَّالح بالقيام في تلك اللَّيلة - مِنَ الاقتصارِ على ذكرِ المُبتدأ.

* في كلام المُصَنِّف إشكال: فَسَّرَ ﴿الرُّوحُ﴾ بجبريل، وهذا مُخالفٌ لآيةٍ في القرآن الكريم، قال الله ﷻ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥].
[فالجواب عنه]: أَنَّ الرُّوحَ في القرآنِ تَقَعُ على معانٍ - أشهرُها: جبريل.

-والآخر: النَّفْسُ التي تكونُ بها الحياة، وهي المُرادَةُ في قول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥].



تَفْسِيرُ

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ • رَسُولٌ مِنْ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً • فِيهَا كُتِبَ قِيمَةٌ • وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ • وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ • إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ • إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ • جَزَاءُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ رَبَّهُ •

كان كفار أهل الكتاب يقولون: سيعث فينا رسول، وكان المشركون يقولون لهم إذا دعوهم إلى اتباع اليهودية أو النصرانية: لم يأتنا رسول كما أتاكم، فأخبر الله في هذه السورة عن قولهم موبخاً، فقال: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ﴾ عن كفرهم؛ أي زائلين عما هم عليه، تاركين له، ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ وهي الحجة الواضحة التي وعد بها اليهود والنصارى في كتبهم، وتلقفها عنهم المشركون.

هذه الآية التي صُدِّرت بها سورة البينة وهي قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ من غوامض الآيات في القرآن الكريم حتى قال الرازي وغيره: (هي أغمض آية في القرآن الكريم) هذه أغمض آية في القرآن الكريم عند جماعة من المفسرين.

وجه الإغماض فيها: أن الله سبحانه وتعالى ذكر أن الكفار من أهل الكتاب والمشركين سيقون على حالهم من الكفر حتى تأتيهم بيِّنَةٌ - وهي الرسول ﷺ بعثته -، ومقتضى الكلام أنه إذا جاءت البيِّنَةُ انتهت غاية تحيرهم وتركهم لما أمر الله ﷻ به، فيكون معنى الآية أنه إذا جاءتهم البيِّنَةُ فسؤمئون، ومع ذلك لم يؤمنوا؛ بل آمن منهم قليل وكفر كثير، فوقع الإشكال من هذه الجهة. هذا وجه الإشكال^(١)، فكيف حلُّه؟

(١) يقول القرآني في «الفروق»: (معرفة الإشكال علم)؛ أي: إذا عرفت الإشكال فهذا علم.

حلُّ هذا الإشكال: أنَّ سياق الآية لم يؤت به للخبر عن حالهم، وإنما جيء به لإرادة توبيخهم وذمهم، فإنَّ أهل الكتاب كانوا يزعمون أنَّه سيُبعثُ منهم نبيٌّ فيتَّبِعُونَه، وكان المشركون من العرب يزعمون أنَّه لم يُبعث إليهم أحد وأنَّه إذا بُعث إليهم أحد فسيؤمنون به، فلمَّا وقع خلاف الأمر من الطائفتين ذُكرت هذه الحال توبيخاً لهم وتقريعاً على ما انتهوا إليه من بقاء أكثرهم على الكفر.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللهُ:

ثُمَّ فَسَّرَ تِلْكَ الْبَيِّنَةَ فَقَالَ: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وَهُوَ مُحَمَّدٌ ﷺ، الَّذِي يَتْلُو مَا هُوَ مَكْتُوبٌ فِي صُحُفٍ مُّطَهَّرَةٍ، مَنْزَهَةٍ عَنِ كُلِّ مَا لَا يَلِيقُ، وَهِيَ صُحُفُ الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَمَتَلُّو النَّبِيِّ ﷺ مِنْهَا هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.

فَالْبَيِّنَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ هِيَ الْمُفَسَّرَةُ فِي تَالِيَتِهَا: ﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ وَهَذِهِ الصُّحُفُ لَا يُرَادُّ بِهَا الْأَلْوَا حُ وَالرَّقَاعُ الَّتِي كَانَ يُكْتَبُ فِيهَا الْقُرْآنُ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُّ بِهَا صُحُفُ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ﴾ • فِي صُحُفٍ مُّكْرَمَةٍ • مَرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ • بِأَيْدِي سَفَرَةٍ • كِرَامٍ بَرَرَةٍ • [عَبَسَ: ١٢-١٦]، وَالصُّحُفُ الْمُكْرَمَةُ الَّتِي بِأَيْدِي السَّفَرَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ هِيَ صُحُفُ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَالْقُرْآنُ مَكْتُوبٌ فِيهَا، فَمَتَلُّو النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمَكْتُوبِ فِي تِلْكَ الصُّحُفِ هُوَ الْقُرْآنُ؛ لِأَنَّ الْمَكْتُوبَ فِيهَا يَزِيدُ عَنْهُ، فَبِهَا: التَّوْرَةُ، وَالْإِنْجِيلُ، وَالزَّبُورُ، وَمَتَلُّو النَّبِيِّ ﷺ مِنْ تِلْكَ الْكُتُبِ هُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

وتلك الصُّحُفُ ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ أي مستقيمةٌ، وهي الكتب التي أنزلها الله مع النبيين، قال الله ﷻ ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

قوله: (وتلك الصُّحُفُ ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ أي مستقيمة) إشارة إلى أن تلك الصُّحُفَ الكائنة في اللوح المحفوظ هي الكتب المنزلة على الأنبياء، فالإشارة في قوله (وتلك الصُّحُفُ) يعني المكتوبة في اللوح المحفوظ، فهي المذكورة في قول الله ﷻ: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾؛ أي مُستقيمةٌ.

والإشارة إلى الكتاب تأتي غالباً بما يدلُّ على البُعد - (ذلك) - كقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، وتأتي تارة بالإشارة إلى القُرب كقوله تعالى: ﴿هَذَا الْكِتَابُ﴾، وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢٩]، وأما القرآن فلا يأتي ذكره في القرآن إلا بالإشارة إليه بالقُرب، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُضُّ عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [النمل: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، ولا يوجد آية فيها: (ذَلِكَ الْقُرْآنُ)؛ لأنَّ الإشارة عند ذكر القرآن تكون إلى قُرب وهو المقروء الذي بأيديكم، أمَّا الكتاب فإنه تارة يُشار إلى البعيد: وهو المكتوب في اللوح المحفوظ، وتارة يُشار إلى القُرب: وهو المكتوب في صُحفنا. الكتاب يُذكر بالإشارة بالبُعد والقُرب، وأما القرآن فيُذكر بالإشارة بالقُرب.

* وذكر الكتاب بالبُعد والقُرب:

- إذا ذُكر البُعد: فيُراد به المكتوب في اللوح المحفوظ؛ فإنَّ القرآن مكتوبٌ فيه.

- وإذا ذُكر بالقُرب: فالمراد به ما بأيدينا من كتاب الله ﷻ.

* وأما القرآن: فلم يأت ذكره إلا بالإشارة إلى القُرب؛ لأنَّ فعل القراءة إنَّما يكون بشيءٍ بأيدينا، أمَّا

أمر الكتابة فقد يكون بأيدينا وقد لا يكون بأيدينا.

- فالذي ليس بأيدينا: صُحف اللوح المحفوظ.

- والذي بأيدينا: صُحف القرآن التي كُتِبَ فيها.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ سَبَبِ كُفْرِ أَهْلِ الْكِتَابِ فَقَالَ ﴿وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ
الْبَيِّنَةُ﴾، وَهَذِهِ الْبَيِّنَةُ هِيَ بَيِّنَةُ أُخْرَى غَيْرُ الْأُولَى، فَالْبَيِّنَةُ هُنَا الْحُجَجُ وَالْآيَاتُ الَّتِي جَاءَتْهُمْ مِنْ قَبْلِ
فَاخْتَلَفُوا فِيهَا وَتَفَرَّقُوا عَنْهَا، فَهِيَ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَةُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ١٠٥].

قَوْلُهُ: (وَهَذِهِ الْبَيِّنَةُ هِيَ بَيِّنَةُ أُخْرَى غَيْرُ الْأُولَى): أَيُّ أَنَّ الْبَيِّنَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرُ الْبَيِّنَةِ الْمَذْكُورَةِ
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ﴾؛ فَإِنَّ تِلْكَ الْبَيِّنَةَ الْمَذْكُورَةَ فِي صَدْرِ السُّورَةِ هِيَ رَسُولُ
اللَّهِ ﷺ، وَأَمَّا الْبَيِّنَةُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الثَّانِي فَالْمَقْصُودُ بِهَا الْحُجَجُ وَالْبَيِّنَاتُ الَّتِي جَاءَتْ إِلَى بَنِي
إِسْرَائِيلَ.

* وَأَمَّا مَنْ يَقُولُ: (إِنَّ الْبَيِّنَةَ الثَّانِيَةَ هِيَ الْبَيِّنَةُ الْأُولَى، وَأَنَّ مَعْنَى الْآيَةِ أَنَّ تَفَرُّقَهُمْ وَقَعَ بَعْدَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ،
فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ)، فَإِنَّ هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ، وَيُرَدُّ مِنْ جِهَتَيْنِ:

- الْأُولَى: مِنْ جِهَةِ الْأَثَرِ، وَهُوَ مَا ثَبَتَ عِنْدَ أَبِي دَاوُدَ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: «أَنَّ الْيَهُودَ افْتَرَقَتْ عَلَى
إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»، فَافْتَرَقُوا قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِمْ، وَلَمْ يَكُونُوا مُجْتَمِعِينَ فَلَمَّا بُعِثَ افْتَرَقُوا.
- الثَّانِيَةِ: مِنْ جِهَةِ النَّظَرِ، فَإِنَّ الْعَارِفَ بِتَارِيخِ الْيَهُودِ وَأَخْبَارِ أُمَمِهِمْ يَطَّلِعُ عَلَى وَجُودِ افْتِرَاقِهِمْ وَتَعَدُّدِ
نَحْلِهِمْ وَمَذَاهِبِهِمْ قَبْلَ بَعْثَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَحِينَئِذٍ يَمْتَنِعُ أَنْ تَكُونَ الْبَيِّنَةُ الثَّانِيَةَ هِيَ الْبَيِّنَةُ الْأُولَى.

- فَالْبَيِّنَةُ الْأُولَى: الْمُرَادُ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ.

- وَالْبَيِّنَةُ الثَّانِيَةُ: الْمُرَادُ بِهَا الْحُجَجُ وَالْآيَاتُ الَّتِي أَظْهَرَهَا اللَّهُ ﷻ لِأَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ولم يأمرهم هذا الرسول إلا بما أمروا به من قبل في كتبهم: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾؛ أي قاصدين بعبادتهم وجهه، فالإخلاص هو تصفية القلب من إرادة غير الله، ﴿حَقَّاءَ﴾ مقبلين على الله مائلين عما سواه، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ وَخَصَّهْمَا بالذكر لفضلهما وشرفهما. ﴿وَذَلِكَ﴾ المأمور به - من إخلاص الدين وإقامة الصلاة وأداء الزكاة - هو ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي دين الكتب المستقيمة، وهو الإسلام، فلا عذرَ لهم في الإعراض عنه.

قوله: ﴿دِينُ الْقِيَمَةِ﴾؛ أي دين الكتب المستقيمة^(١): ليس وصفاً للكتاب: بأنه إذا كان له رتبة ومنزلة أن يُقال فيه: «هذا كتابٌ قيِّم»، الآن يقولون: «كتابٌ قيِّم» يعني له قيمة، «كتابٌ قيِّم»: معناه كتابٌ مستقيم هذا هو المعروف في لسان العرب.



^(١) هذه الجملة: (أي دين الكتب المستقيمة) وردت بلفظ آخر في النسخ القديمة لهذا المتن، وهو: (أي دين الكتب القيِّمة). وقد غير الشيخ هذه الجملة، فأثبت ما كان في النسخة الجديدة من مقررات برنامج أصول العلم، وحذفت من الشرح ما يتعلق بشرح معنى (الكتب القيِّمة) لأنه استغني عن ذلك بإثبات الجملة الجديدة.

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ ذَكَرَ جَزَاءَ الْكَافِرِينَ بَعْدَ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَةُ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾، وَالْبَرِيَّةُ: الْخَلِيقَةُ.

وَاتَّبَعَهُ بِذِكْرِ جَزَاءِ مُقَابِلِهِمْ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ۖ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٌ ۖ أَيُّ جَنَّاتٍ إِقَامَةٍ، لَا يَتَحَوَّلُونَ عَنْهَا، ۖ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أَيُّ مَنْ تَحْتَ أَشْجَارِهَا وَغُرْفِهَا، عَلَى وَجْهِ أَرْضِهَا فِي غَيْرِ شَقٍّ، ۖ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۖ، فَرَضِي عَنْهُمْ بِمَا عَمِلُوا مِنْ طَاعَتِهِ، وَرَضُوا عَنْهُ بِمَا أَثَابَهُمْ بِهِ مِنَ النَّعِيمِ الْمَقِيمِ، وَإِنَّ ۖ ذَٰلِكَ ۖ الْجَزَاءَ الْحَسَنَ حَقٌّ ۖ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ۖ﴾ فَلَا يَنَالُهُ إِلَّا مَنْ كَانَتْ هَذِهِ صِفَتُهُ، وَالْخَشْيَةُ خَوْفٌ مَقْرُونٌ بِعِلْمٍ.

قَوْلُهُ: (عَلَى وَجْهِ أَرْضِهَا فِي غَيْرِ شَقٍّ) أَيُّ أَنَّ مَعْنَى جَرَيَانِ الْأَنْهَارِ مِنْ تَحْتِ الْجَنَانِ أَنَّهَا تَسْرِي دُونَ شَقٍّ تَجْرِي فِيهِ، وَهَذَا مِنْ خَصَائِصِ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، فَأَنْهَارُ الْجَنَّةِ لَا تَكُونُ فِي أَخَادِيدٍ - أَيُّ مَوَاضِعَ مَشْقُوقَةٍ مِنَ الْأَرْضِ - بَلْ تَسِيحُ وَتَجْرِي عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ مِنْ دُونَ شَقٍّ تَسْرِي فِيهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى شَهْرٌ عِنْدَ بَعْضِ الْمُعَاصِرِينَ إِبْطَالُهُ زَعَمًا أَنَّ هَذِهِ الصِّفَةَ لَا يَصِحُّ فِيهَا حَدِيثٌ، وَعَلَى هَذَا - إِذَا لَمْ يَصَحَّ فِيهَا حَدِيثٌ - فَتَكُونُ صِفَةً غَيْرَ صَحِيحَةٍ. هَذَا لَيْسَ صَحِيحًا، لَيْسَ كُلُّ مَا ضَعُفَ الْحَدِيثُ فِيهِ يَكُونُ لَيْسَ صَحِيحًا، هَذَا مِنْ مُبْتَكِرَاتِ النَّاسِ فِي هَذَا الزَّمَنِ الْمُتَأَخَّرِ. هُنَاكَ أَشْيَاءُ تَكُونُ الْأَحَادِيثُ فِيهَا ضَعِيفَةً وَتَكُونُ هِيَ الدِّينُ؛ لِأَنَّ الْإِجْمَاعَ يَنْعَقِدُ عَلَيْهَا. فَيَنْبَغِي أَنْ تَعْتَنِيَ بِمَعْرِفَةِ مَوَاقِعِ الْأَحْكَامِ فَوْقَ مَا جَاءَ فِي الْأَحَادِيثِ الَّتِي يُقَالُ إِنَّهَا ضَعِيفَةٌ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا شَهَرَ الْأَمْرُ عِنْدَ الْمُسْلِمِينَ، كَهَذَا التَّفْسِيرِ؛ فَإِنَّ تَفْسِيرَ أَنْهَارِ الْجَنَّةِ بِأَنَّهَا تَجْرِي فِي غَيْرِ أَخْدُودٍ هُوَ التَّفْسِيرُ الْمَشْهُورُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ.

* وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ أَمْرَانِ:

- أَحَدُهُمَا: أَنَّ هَذَا التَّفْسِيرَ الْمَعْرُوفَ عَنِ التَّابِعِينَ، كَمَسْرُوقِ بْنِ الْأَجْدَعِ وَغَيْرِهِ، فَلَمْ يُوجَدْ فِي الصَّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ كَلَامٌ فِيهِ، وَإِنَّمَا وَجِدَ كَلَامُ التَّابِعِينَ، وَلَا يُعْرَفُ بَيْنَهُمْ خِلَافٌ، وَحِينَئِذٍ فَإِنَّ تَفْسِيرَهُمْ حُجَّةٌ، ذَكَرَهُ شُعْبَةُ بْنُ الْحَجَّاجِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. لِمَاذَا تَفْسِيرُهُمْ حُجَّةٌ؟ عَمَّنْ أَخَذُوا التَّفْسِيرَ؟ عَنِ الصَّحَابَةِ. الْقَوْلُ فِي التَّفْسِيرِ مِنْ أَعْظَمِ الْعِلْمِ، كَمَا قَالَ الشَّعْبِيُّ وَغَيْرُهُ: (إِنَّمَا هُوَ الرَّوَايَةُ عَنِ اللَّهِ)، يَعْنِي أَمْرُهُ عَظِيمٌ عِنْدَ السَّلَفِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى، فَلَا يُظَنُّ أَنَّهُمْ ابْتَكَرُوهُ مِنْ بُنْيَاتِ أَفْهَامِهِمْ؛ بَلْ هُوَ أَمْرٌ تَلَقَّوْهُ، فَيُعْلَمُ بِأَنَّ هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ الْمَشْهُورُ إِذَا لَا يُعْرَفُ بَيْنَ التَّابِعِينَ خِلَافٌ بَيْنَ ذَلِكَ.

- والآخر: أنه صحَّ عند أحمد أن النبي ﷺ لما ذكرَ نهرَ الكوثر قال: «يجري في غير أخذود»، وهذا وصفُ أحدِ أنهارِ الجنة، فالحاقُ بقيتها به أولى من ادعاءِ عدم ذلك؛ لأنَّ الأصلَ أنَّها أنهارٌ في الجنة فيكونُ حكمُها في وصفها واحداً.



تَفْسِيرُ

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: نزلت ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، وأبو بكر الصديق رضي الله عنه قاعدٌ فبكى أبو بكر، فقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا أبا بكر؟»، فقال: أبكتني هذه السورة، فقال رسول الله ﷺ: «لو أنكم لا تخطئون ولا تُذنبون لخلق الله تعالى أمةً من بعدكم يُخطئون ويُذنبون فيغفر لهم». رواه الطبراني في «المعجم الكبير»، وإسناده حسنٌ.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا • وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا • وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا • يَوْمَئِذٍ تُخَدِّثُ أَخْبَارَهَا • يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ أَوْحَىٰ لَهَا • يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ • فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ • وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

ذكر الله تعالى ابتداء حال الأرض يوم القيامة فقال: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾، فُرِجَتْ رَجًّا شديدًا، ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ وهو ما تثقل به ممَّا في بطنها، فألقته على ظهرها، كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾ [الانشقاق: ٤]، ﴿وَقَالَ الْإِنْسَانُ﴾ مستعظمًا حالها: ﴿مَا لَهَا﴾؛ أي ما الذي حدث لها؟ وما عاقبته؟

ولا تكون زلزلتها كلها إلا يوم القيامة.

قوله: (ولا تكون زلزلتها كلها إلا يوم القيامة): الزلزلة التي تطرأ على الأرض نوعان:

- أحدهما: زلزلة تتقيد بناحية من نواحيها؛ وهي جميع الزلازل التي تكون قبل يوم القيامة.
- والآخر: زلزلة الأرض جميعها، وهي الزلزلة التي تكون يوم القيامة، فلا تختص بناحية من نواحيها؛ بل تعم الأرض جميعًا، ولها أفردت هذه السورة. فالزلزلة المذكورة في هذه السورة يراد بها الزلزلة العامة التي تكون يوم القيامة.

* إذا كانت التي في السورة هي زلزلة يوم القيامة، فما فائدة الزلازل التي تكون في النواحي قبل يوم

القيامة؟

[الجواب]: تذكيرٌ وتنبيهٌ بالزلزالِ الأعظم، وهذا من طرائق الشريعة: (تقديمُ الصغيرِ تنبيهاً إلى الكبير)، مثل ما في «صحيحِ مُسلم» أن النبي ﷺ قال: «وإنَّه سيكونُ في أمتي دجالونَ ثلاثون»، هؤلاء دَجَاجِلَةٌ صِغارٌ مُقدِّمَةٌ للدَّجَالِ الأكبر: وهو المسيحُ الدَّجَالُ. فمن طرائقِ الشريعة في تنبيهِ النَّاسِ وإيقاظِهِم من غفلتِهِم: تقديمُ الصغيرِ تنبيهاً على الكبير.

* ومن لطائفِ البدائع في الإفادات ما ذكره أبو العباس بن تيمية في «منهاجِ السُّنة النبوية»، وابنُ سَعْدِي في «مجموعِ الفوائد»، أن النَّاسَ لم يزالوا يستعيذونَ في صلواتِهِم منَ المسيحِ الدَّجَالِ، مع أنَّه طالَ العهدُ ولم يخرج. كم له الآنُ مُنذُ جاء الوعدُ به؟ ألف وأربعمائة سنة وزيادة، ومع ذلك يستعيذُ النَّاسُ منه، ما الفائدة؟

[الجواب]: «ذَكَرَ أَنَّ الاستعاذةَ مِنَ الأكبرِ يَنْدَرِجُ فيها الاستعاذةُ مِنَ الأصغرِ، فتكونُ حصناً يَتَّقِي به الإنسانُ شَرَّ الدَّجَاجِلَةِ الصَّغَارِ في الدُّنْيَا قَبْلَ خروجِ الدَّجَالِ الأكبرِ».



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ الْأَرْضُ ﴿أَخْبَارَهَا﴾ فَتُخَبِّرُ بِمَا عُمِلَ عَلَى ظَهَرِهَا مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، ذَلِكَ ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾؛ أَي أَمَرَهَا أَنْ تُخَبِّرَ بِهِ، فَلَا تَعْصِي أَمْرَهُ.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ﴾ يُقْبَلُونَ إِلَى الْمَوْقِفِ وَالْحِسَابِ ﴿أَشْتَاتًا﴾؛ أَي أَصْنَافًا مُتَفَرِّقِينَ، وَمَقْصُودُ صَرْفِهِمْ: ﴿لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ فَيُرِيَهُمُ اللَّهُ مَا عَمِلُوا مِنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَيُجَازِيهِمْ عَلَيْهَا، فَلِمُحْسَنِهِمُ النَّعِيمُ الْمُقِيمُ، وَلِمُسِيئِهِمُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وَهِيَ النَّمْلَةُ الصَّغِيرَةُ ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾؛ أَي يَرَهُ وَيَرْ ثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ، ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾؛ أَي يَرَهُ وَيَرْ عِقَابَهُ فِيهَا.

وَرَوَى النَّسَائِيُّ فِي «السُّنَنِ الْكُبْرَى» عَنْ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ • وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ، قَالَ: مَا أَبَالِي إِلَّا أَسْمَعَ غَيْرَهَا، حَسْبِي حَسْبِي، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

قَوْلُهُ فِي الْمَوْضِعِ الْأَوَّلِ: (أَي يَرَهُ وَيَرْ ثَوَابَهُ فِي الْآخِرَةِ)، وَالثَّانِي (أَي يَرَهُ وَيَرْ عِقَابَهُ فِيهَا)، إِشَارَةٌ إِلَى مُتَعَلِّقِ الرُّؤْيَةِ، وَأَنَّ الْعَبْدَ يَرَى الْعَمَلَ وَيَرَى جَزَاءَهُ، فَلَا تَقْتَصِرُ الرُّؤْيَةُ عَلَى رُؤْيَةِ الْجَزَاءِ فَقَطْ، وَإِنَّمَا يَرَى الْعَبْدُ عَمَلَهُ الَّذِي قَدَّمَ وَيَرَى مَا لَهُ مِنَ الْجَزَاءِ عَلَيْهِ مِنْ ثَوَابٍ حَسَنٍ أَوْ عِقَابٍ شَدِيدٍ.



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْعَادِيَاتِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا • فَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا • فَالْمُغِيرَتِ صُبْحًا • فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا • فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا • إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ • وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ • وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ • أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ • وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ • إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾

أقسم الله تبارك وتعالى بالخيال الجارية في سبيل الله، فقال: ﴿وَالْعَدِيَّتِ صَبْحًا﴾ أي العاديات عدواً بليغاً قوياً، يصدر عنه الضُّبح، وهو صوت نفسها في جوفها، عند اشتداد عدوها، ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾ الموقدات بحوافرهنَّ ما يطأَنَّ عليه من الأحجار ﴿قَدْحًا﴾، فتقدح النار ويتوقد شررها من ضرب حوافرهنَّ إذا عدون، ﴿فَالْمُغِيرَتِ﴾ المباغيات الأعداء بما يكره ﴿صُبْحًا﴾؛ فإنهم كانوا لا يُغيرون على القوم إذا غزوا إلا بعد الفجر، فتكون الغارة صباحاً، ﴿فَأَثَرْنَ بِهِ﴾ أي هيَّجن وأصعدن بعدوهم وغارتهم ﴿نَقْعًا﴾ وهو الغبار، ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ﴾ أي تَوَسَّطْنَ براكبيهنَّ ﴿جَمْعًا﴾ وهم الأعداء الذين أُغِير عليهم.

والقسم بالخيال على تلك الأوصاف لأجل التَّهويل، وترويع المشركين بما أُعدَّ لهم من الجهاد وآلته. وجواب القسم هو قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾؛ أي لكفوراً لنعمة ربِّه، ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي الإنسان ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ الكفر ﴿لَشَهِيدٌ﴾ في فلتات أقواله وأفعاله، فيبدو منها على لسانه وفي تصرفاته ما يتضمَّن الشَّهادة على نفسه بكفر نعمة ربِّه، ﴿وَإِنَّهُ﴾ أي الإنسان ﴿لِحُبِّ الْخَيْرِ﴾ وهو المال ﴿لَشَدِيدٌ﴾؛ أي كثير الحبِّ له، وحبُّه إيَّاه حمله على البخل به، فصيرَه كفوراً.

ولهذا قال الله تحذيراً له وتخويفاً: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ هذا الكفور عن عقابه ﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾ أي أُثيرَ ما فيها، وأخرج الله الأموات منها، ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ فُجِّع وأُحصي ما فيها من كمائن الخير والشرِّ، ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي مُطَّلِعٌ على أعمالهم، ومجازيهم عليها، وخصَّ خبره بيوم القيامة حين تُبعثرُ القبور ويُحصَّل ما في الصدور، مع أنَّه خبيرٌ بهم في كلِّ وقتٍ؛ لأنَّ المراد: الجزاء بالأعمال النَّاشئ عن علم الله بهم وإطلاعه عليهم.

قوله ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ أي مُطَّلَعٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، ومجازيهم عليها): فالمراد بالخبر هنا هو خبرُ الجزاء والإعلام بما يكون للعبد من الثواب والعقاب.

* وَمِنْ مَسَالِكِ الْبَيَانِ فِي الْقُرْآنِ: ذِكْرُ الْخَبَرِ وَالْعِلْمِ عَلَى إِرَادَةِ خُبَرِ الْجَزَاءِ وَعِلْمِهِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾؛ أَي: مُطَّلَعٌ عَلَى أَعْمَالِهِمْ خَبِيرٌ بِجَزَائِهِمْ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ [البقرة: ٢٧٠]، أَي: يَعْلَمُ جَزَاءَهُ، فَهَذَا هُوَ الْمُرَادُ بِذِكْرِ الْخَبَرِ أَوِ الْعِلْمِ بَعْدَ الْأَعْمَالِ، الْمُرَادُ بِذَلِكَ خُبَرُ الْجَزَاءِ وَعِلْمُهُ، لِأَنَّ عِلْمَ اللَّهِ ﷻ وَخُبْرَهُ لَا يَخْتَصُّانِ بِحَالٍ؛ بَلِ اللَّهُ ﷻ عَلِيمٌ خَبِيرٌ بِالْخَلْقِ فِي كُلِّ حِينٍ وَآنٍ، فَإِذَا خُصِّصَ بَعْضُ تِلْكَ الْأَحْوَالِ بِذِكْرِ الْعِلْمِ أَوِ الْخَبَرِ عَلِمَ أَنَّ الْمُرَادَ مَعْنَى آخَرَ غَيْرَ الْمُتَبَادِرِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ هُوَ خَبِيرٌ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ وَخَبِيرٌ بِهِمْ قَبْلَ ذَلِكَ، لَكِنَّ الْخَبَرَ الْمُرَادَ بِهِ هُنَا: خُبَرٌ يَتَعَلَّقُ بِالْأَعْمَالِ، وَكَذَلِكَ فِي آيَةِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ [البقرة: ٢٧٠]، هُوَ عَلِيمٌ بِكُلِّ شَيْءٍ، لَكِنَّ الْعِلْمَ الْمُرَادَ هُنَا هُوَ عِلْمُ الْجَزَاءِ.



تفسيرُ

سُورَةُ الْقَارِعَةِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الْقَارِعَةُ • مَا الْقَارِعَةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ • يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ • وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ • فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ • فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ • وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ • فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَّةُ • نَارُ حَامِيَةٍ﴾

الْقَارِعَةُ من أسماء يوم القيامة؛ لأنها تَقْرَعُ قلوب الناس وتزعجهم بأحوالها، ولهذا عَظُمَ شأنها وهول أمرها بقوله: ﴿الْقَارِعَةُ • مَا الْقَارِعَةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾؛ فأي شيء هي هذه القارعة؟ وأي شيء أعلمك بها؟، ثم أخبر عنها فقال: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ من شدة الفزع والهول، ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ أي المنتشر، والفراش: فرخ الجراد حين يخرج من بيضه يركب بعضه بعضاً، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧].

ذَكَرَ الْمُصَنِّفُ - وَفَّقَهُ اللَّهُ - أَنَّ (الْفَرَاشَ) فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ هُوَ (فَرَخُ الْجَرَادِ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْضِهِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا) لَا كَمَا قَالَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ: (تَهَافُتُ الْفَرَاشُ فِي النَّارِ وَأَنَّ الْفَرَاشَ إِذَا رَأَى نَارًا مُتَقَدَّةً بَادَرَ إِلَيْهَا مُتَهَافِتًا فِيهَا)؛ فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ مَرْدُودٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

- أَحدهما: مِنْ جِهَةٍ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ ﷻ فِي آيَةٍ أُخْرَى، وَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أَي الْقُبُورِ ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، فَهَذِهِ الْآيَةُ تُفَسِّرُ آيَةَ سُورَةِ الْقَارِعَةِ.

- وَالْآخَرُ: أَنَّ الْمُنَاسِبَ فِي ذِكْرِ أَحْوَالِ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - فِي مَرَجِهِمْ وَامْتِزَاجِ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ - هُوَ الصِّفَةُ الَّتِي يَكُونُ عَلَيْهَا فَرَخُ الْجَرَادِ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْضِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شِدَّةِ سَعْيِهِ فِي الْخُرُوجِ وَكَثْرَتِهِ يَرْكَبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، وَهَذِهِ هِيَ حَالُ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ أَيِ الصُّوفِ ﴿الْمَنْفُوشِ﴾ الْمَتَمَرِّقُ الَّذِي فُرِّقَتْ بَعْضُ أَجْزَائِهِ عَنْ بَعْضٍ. وَفِي ذَلِكَ الْيَوْمِ تُنْصَبُ الْمَوَازِينُ، ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ بِرُجْحَانِ حَسَنَاتِهِ عَلَى سَيِّئَاتِهِ ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾؛ أَيِ حَيَاةٍ مَرْضِيَّةٍ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ بِأَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ تُقَاوِمُ سَيِّئَاتِهِ، ﴿فَأُمُّهُ هَاوِيَّةٌ﴾ أَيِ مَأْوَاهُ وَمَسْكَنُهُ النَّارُ، تَكُونُ لَهُ بِمَنْزِلَةِ الْأُمِّ الَّتِي يَأْوِي إِلَيْهَا وَيَلْزَمُهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الْفُرْقَان: ٦٥]؛ أَيِ مَلَاذِمًا أَهْلَهَا، وَعَظَمَ أَمْرَهَا فَقَالَ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾، ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿نَارٌ حَامِيَّةٌ﴾؛ أَيِ شَدِيدَةِ الْحَرَارَةِ، مِنَ الْوُقُودِ عَلَيْهَا، وَصَحَّ فِي الْحَدِيثِ أَنَّ حَرَارَتَهَا تَزِيدُ عَلَى حَرَارَةِ نَارِ الدُّنْيَا سَبْعِينَ ضِعْفًا.

قَوْلُهُ: (الْوُقُودُ): يَعْنِي الْإِيقَادَ، مِنْ شِدَّةِ الْإِيقَادِ عَلَيْهَا.

أَمَّا (الْوُقُودُ): هُوَ مَا تُوقَدُ بِهِ مِنَ النَّاسِ وَالْحِجَارَةِ.



تَفْسِيرُ

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ

عن عبد الله بن الشَّحِير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿الْهَلِكُمْ التَّكْوِيْنُ﴾، قَالَ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي! مَالِي!»، قَالَ: «وَهَلْ لَكَ يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ؟!، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ؟!، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ?!». رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْفَقْرَ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمُ التَّكْوِيْنُ، وَمَا أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْخَطَأَ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمُ الْعَمَدَ». رواه أحمد، وإسناده صحيح.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿الْهَلِكُمْ التَّكْوِيْنُ • حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ • كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ • ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ • كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ • لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ • ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ • ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾
يقول الله تعالى موبِّخًا المشركين ومحدِّثًا عباده المؤمنين: ﴿الْهَلِكُمْ﴾؛ أي شغلكم عما خُلِقْتُمْ له - وهو عبادة الله - ﴿التَّكْوِيْنُ﴾ بينكم، وهو التَّفَاخُرُ بالكثرة فيما يُرْغَب فيه من الدُّنْيَا كَالنِّسَاءِ، وَالْبَنِينَ، وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ، وَالْأَنْعَامِ، وَالْحَرْثِ، وَحَذَفَ الْمُتَكَاثِرَ بِهِ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَا يُكَاثِرُ بِهِ، وَلَمْ تَزَالُوا عَلَى تِلْكَ الْحَالِ ﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ بِأَنْ مُتُّمْ فُدُنْتُمْ فِيهَا وَصِرْتُمْ إِلَيْهَا، وَإِنَّمَا جَعَلَ الْمَقَامَ فِي الْبَرْزَخِ زِيَارَةً؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ مِنْهُ: التَّنْفُذُ إِلَى الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَجَعَلَهُمُ اللَّهُ زَائِرِينَ لَا مُقِيمِينَ، وَالْبَعْثَ وَالْجَزَاءَ يَكُونَانِ فِي تِلْكَ الدَّارِ، وَلِهَذَا تَوَعَّدَهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ • ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ سَوْفَ عَاقِبَةُ تَكَاثُرِكُمْ، وَتَشَاغُلِكُمْ عَنْ عِبَادَةِ رَبِّكُمْ، وَكَرَّرَ الْجُمْلَةَ مَبَالِغَةً فِي التَّهْدِيدِ، وَزِيَادَةً تَأْكِيدًا فِي تَحَقُّقِ الْوَعِيدِ.

قَوْلُهُ: (وَحَذَفَ الْمُتَكَاثِرَ بِهِ لِيَشْمَلَ كُلَّ مَا يُكَاثِرُ بِهِ): أَي أَنَّ كُلَّ مُكَاثِرٍ بِهِ عَلَى وَجْهِ الْمُفَاخَرَةِ فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ، وَإِنَّمَا ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ أَصُولُهُ وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤]، فَأَصُولُ مَا يُفَاخَرُ بِهِ هِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، وَلَا تَنْحَصِرُ فِيهَا؛ بَلْ كُلُّ مَا طَلَبَ الْعَبْدُ الْمُكَاثَرَةَ بِهِ مُفَاخِرًا فَإِنَّهُ مَذْمُومٌ. مِثْلُ: الْعِلْمِ، لِأَنَّ الْمَذْمُومَ أَنْ يَكُونَ مُفَاخِرًا بِهِ، هَذَا مِثَالٌ جَيِّدٌ.

* ولكن دائماً أنا أقول لكم - يا إخوان - افهموا الشرع وأحكامه بما في حياتنا.

مثل: المُتَابِعِينَ فِي صَفَحَاتِ «تَوَيْتِر»: مُفَاخَرَةُ الْإِنْسَانِ بِذَلِكَ وَالنَّظَرُ إِلَى الْعَدَدِ، مِمَّا يُذَمُّ وَيُؤْذِي قَلْبَهُ، لِأَنَّهُ لَيْسَ الْفَخْرُ أَنْ يُتَابَعَكَ أَعْدَادٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّمَا الْفَخْرُ أَنْ يَتَفَعَّلُوا بِكَ. إِذَا انْتَفَعُوا بِكَ فَهَذَا هُوَ الْفَخْرُ الَّذِي لَيْسَ فَوْقَهُ فَخْرٌ، وَأَمَّا مُجَرَّدُ الْمُتَابَعَةِ لَا تُسَمِّنُ وَلَا تُغْنِي مِنْ جَوْعٍ، وَإِنَّمَا الَّذِي يَنْتَفِعُ بِكَلِمَتِكَ وَتُصْلِحُ مِنْ حَالِهِ هَذَا هُوَ الَّذِي يَرْجُو الْإِنْسَانُ بَرَكَةَ إِصْلَاحِهِ بِمَا أَوْصَلَهُ مِنَ الْخَيْرِ. وَهَذَا يَدُلُّكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ إِذَا فُتِحَ لَهُ بَابٌ مِنْ إِيصَالِ الدِّينِ وَتَبْلِيغِهِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْرِصَ عَلَى مَا يَنْفَعُ النَّاسَ حَتَّى يَسْتَفِيدَ، وَأَمَّا أَنْ يَجْعَلَ صَفْحَتَهُ مَدَارًا لِلْحَدِيثِ عَنْ أَحْوَالِهِ، وَآكِلِهِ وَشُرْبِهِ، وَقِيَامِهِ وَقُعُودِهِ، فَهَذَا مُضَاهَاةٌ لِحَالِ أَهْلِ الْكُفْرِ فِيمَا اصْطَلَحُوا عَلَيْهِ مِنْ أَنْمَاطٍ وَضَعِ هَذِهِ الصَّفَحَاتِ عِنْدَهُمْ. وَنَحْنُ لَنَا شَأْنٌ آخَرُ فِي مِثْلِهَا، فَإِنَّا لَا نَأْخُذُهَا مُسْتَجِرِّينَ مَا يَفْعَلُونَ، وَلَكِنَّا نَأْخُذُهَا لِنَسْتَفِيدَ بِهَا فِي إِيصَالِ الْخَيْرِ لِلنَّاسِ. فَيَنْبَغِي أَنْ يَحْتَاطَ الْإِنْسَانُ فِيمَا يُرِيدُ أَنْ «يُغَرِّدَ» بِهِ - كَمَا يُقَالُ - فَيَجْعَلُهُ فِيمَا يَنْفَعُ النَّاسَ لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرْجُو بَرَكَتَهُ، وَأَمَّا أَنْ يَحْرِصَ الْإِنْسَانُ عَلَى الْاِسْتِكْثَارِ مِنَ النَّاسِ بِأُمُورٍ تُزَيِّنُ لَهُ فَهَذَا لَا يَنْفَعُهُ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وَكَثْرَةُ النَّاسِ لَا تُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا. وَإِذَا فُتِحَ لِلْإِنْسَانِ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَى جَعْلِهِ فِي نِصَابِهِ، لَا أَنْ يَجْعَلَهُ فِي مَسَاقٍ آخَرَ لَا يَمُتُّ إِلَى الشَّرْعِ بِصِلَةٍ. وَمِمَّا يُؤَسَفُ لَهُ أَنْ تَجِدَ بَعْضَ الْعِبَارَاتِ الَّتِي تُشِيرُ إِلَى طَلَبِ هَذَا، كَقَوْلِ بَعْضِهِمْ: (أَضِفْنِي وَأُضِفُكَ)، فَهَذَا ظَاهِرٌ فِي الْمُكَاثَرَةِ. هُوَ يَطْلُبُ الْعَدَدَ فَيَقُولُ: (إِنْ أَضَفْتَنِي أَضَفْتُكَ). وَطَالِبُ الْعِلْمِ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَحْتَرِزَ مِنْ هَذِهِ الْوَارِدَاتِ وَأَنْ لَا يَكُونَ مَسْوِقًا مَعَ النَّاسِ سِيَاقَ الْهَمَلِ فِي الْفَلَاةِ؛ بَلْ يَتَمَيَّزُ عَنْهُمْ بِحَالِهِ وَيَخْتَصُّ دُونَهُمْ بِمَا خَصَّهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهِ، أَمَّا أَنْ يَكُونَ طَالِبُ الْعِلْمِ إِمْعَةً لَا يَعِي مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا فَهُوَ يَدُورُ مَعَ فَلَكِ الْأُمُورِ دُونَ عَقْلِ وَلَا رَوِيَّةٍ، وَلَا نَظَرٍ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وَنَهْيِهِ، فَهَذَا عِلْمُهُ الَّذِي يَطْلُبُهُ وَتَحَلَّى بِهِ عِلْمٌ مَدْخُولٌ غَيْرُ صَحِيحٍ، يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُصْلِحَ مِنْ نَفْسِهِ فِي عِلْمِهِ الَّذِي يَأْخُذُهُ حَتَّى تَظْهَرَ مَنْفَعَتُهُ عَلَيْهِ، أَمَّا إِذَا كَانَ يَلْتَمِسُ الْعِلْمَ ثُمَّ تَقَعُ مِنْهُ أَحْوَالٌ لَا تُنَاسِبُ حَالَ صَاحِبِ الْعِلْمِ، فَأَيْنَ الْعِلْمُ الَّذِي اسْتَفَادَ مِنْهُ الْإِنْسَانُ؟! هُوَ بَعِيدٌ مِنْهُ! وَالْعِلْمُ لَيْسَ اسْمًا، وَلَا لَقَبًا، وَلَا رَسْمًا، وَلَا شَارَةً، وَلَا مَنْصِبًا، وَإِنَّمَا الْعِلْمُ: حَقِيقَةٌ تُعَمَّرُ بِهَا الْقُلُوبُ فَتَبْدُو آثَارُهَا عَلَى النَّفْسِ، هَذَا هُوَ الْعِلْمُ. فَمَنْ وَجَدَ تِلْكَ الْحَالَ مِنْ مُوَافَقَةِ الشَّرْعِ وَمُوَافَقَةِ الْهُدَى فَذَاكَ الَّذِي يَنْفَعُهُ، وَأَمَّا أَنْ يَنْتَسِبَ إِلَى الْعِلْمِ ثُمَّ تَظْهَرُ مِنْهُ أَشْيَاءٌ لَا تَمُتُّ إِلَى الْعِلْمِ بِصِلَةٍ حَتَّى أَنْتَ لَوْ وَضَعْتَ مَا غَرَّدَ بِهِ مُنْتَسِبٌ إِلَى الْعِلْمِ، وَوَضَعْتَ مَا غَرَّدَ بِهِ مُمَثِّلٌ سَاقِطٌ لَمْ تَجِدْ بَيْنَهُمَا فَرْقًا فِي التَّغْرِيدَتَيْنِ، فَأَيُّ شَيْءٍ اِمْتَارَ بِهِ هَذَا عَنْ هَذَا؟! لَكِنْ ذُهِلَ الْعُقُولُ وَشَدَّهَا أَمَامَ الْمُسْتَجِدَّاتِ وَالْمُتَغَيِّرَاتِ الَّتِي تَطْرَأُ عَلَى حَيَاةِ النَّاسِ تُبَلِّغُهُمْ هَذَا الْمَبْلَغَ.

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ زَجَرَهُمْ عَنْ غِيْهِمْ مَرَّةً أُخْرَى فَقَالَ: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾؛ أَي لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمًا ثَابِتًا فِي الْقَلْبِ مَا تَسْتَقْبِلُونَ بَعْدَ الْمَوْتِ؛ لَمَّا أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ عَنْ عِبَادَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَقْسَمَ اللَّهُ فَقَالَ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ والجملة جواب قسمٍ محذوفٍ، تقديره: والله لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ، ثُمَّ أَكَّدَ الْقِسْمَ بِقِسْمٍ آخَرَ فَقَالَ: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾؛ أَي عَيْنًا بِأَبْصَارِكُمْ؛ وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مَرِيَم: ٧١]، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا سُئِلْتُمْ حِينَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ؛ وَهُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾؛ أَي فَلْيَسْأَلَنَّكُمْ اللَّهُ عَمَّا تَعَمَّتُمْ بِهِ فِي دَارِ الدُّنْيَا، أَشَكَرْتُمْ أَمْ كَفَرْتُمْ؟

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ قَالَ الزُّبَيْرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَيُّ النَّعِيمِ نُسْأَلُ عَنْهُ، وَإِنَّمَا هُمَا الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ؟! قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ سَيَكُونُ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ أَوْ لَيْلَةٍ، فَإِذَا هُوَ بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ، فَقَالَ: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟!» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا أَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا، قَوْمُوا»، فَقَامُوا مَعَهُ فَاتَى رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَإِذَا هُوَ لَيْسَ فِي بَيْتِهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْمَرْأَةُ قَالَتْ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيْنَ فَلَانٌ؟» قَالَتْ: ذَهَبَ يَسْتَعِذُّ لَنَا مِنَ الْمَاءِ، إِذْ جَاءَ الْأَنْصَارِيُّ فَنَظَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَصَاحِبِيهِ، ثُمَّ قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، مَا أَحَدُ الْيَوْمِ أَكْرَمَ أَضْيَافًا مِنِّي، قَالَ: فَاذْهَبَا فَجَاءَهُمَا بِعِدْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ وَرُطْبٌ، فَقَالَ: كُلُوا مِنْ هَذِهِ وَأَخَذَ الْمُدِيَّةَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكَ وَالْحُلُوبَ»، فَذَبَحَ لَهُمْ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْعِدْقِ، وَشَرَبُوا، فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُّوا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُسْأَلَنَّ عَنْ هَذَا النَّعِيمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الْجُوعُ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حَتَّى أَصَابَكُمْ هَذَا النَّعِيمُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْعَصْرِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَالْعَصْرِ • إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ • إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾

استفتح الله هذه السُّورة بالقسم فقال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ وهو الوقتُ المعروف آخرَ النَّهار قبل غروب الشمس؛ والمُقَسَّم عليه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ فكلُّ النَّاسِ في خُسْرٍ؛ أي هَلَكَةٍ ونُقْصَانٍ، ثُمَّ استثنى من الخُسْر الذين اتَّصفوا بأربع صفاتٍ هي المذكورة في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ﴾.

فالصفة الأولى: الإيمان، وإنَّما يُدْرِك أصله وكمالُه بالعلم.

والثانية: العمل الصَّالح.

وبهما يُكْمَل الإنسان نفسه.

والثالثة: التَّوَّاصِي بالحَقِّ، يأمر بعضهم بعضًا به.

والرَّابعة: التَّوَّاصِي بالصَّبْرِ على أمر الله.

وبهما يُكْمَل الإنسان غيره.

قوله: (فقال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ وهو الوقتُ المعروف آخرَ النَّهار قبل غروب الشمس): واختيرَ هذا المعنى دونَ سائرِ معاني العَصْرِ المعروفة في لسانِ العَرَبِ لأنَّه هو المَعهودُ في الخطابِ الشرعي؛ فإنَّ العَصْرَ إذا ذُكِرَ في الأحاديثِ النَّبَوِيَّةِ والآثارِ السَّلَفِيَّةِ لَمْ يَرِدْ به إِلَّا الوقتُ الذي يكونُ في آخرِ النَّهار، أمَّا إطلاقُه على إرادةِ الدَّهْرِ أو غيره فإنَّه ليسَ معروفًا في الخطابِ الشرعي.

* وَمِنْ قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ: (تقديمُ المَعهودِ في الخطابِ الشرعيِّ على غيره).

فالمَعهودُ في الخطابِ الشرعي أنَّ العَصْرَ إذا ذُكِرَ أريدَ به الوقتُ الذي يكونُ في آخرِ النَّهار، فحينئذٍ يكونُ قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾: إقسامًا بذلك الوقت.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْهُمَزَةِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ • الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ • يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ • كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ • نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ • الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ • إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ • فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ •﴾

هذه السُّورة مستفتحةٌ بالوعيد، ففاتحتها: ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةٌ وعيدٌ وتهديدٌ، تتضمن الدعاءَ عليه بسوء الحال؛ لتعديتها باللام في قوله: ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، فتقدير الكلام: ويلٌ له، وهو الذي يهمز الناس بفعله، ويلمزهم بقوله، فالهمَّاز: من يعيب الناس، ويطعن عليهم بالإشارة، واللمَّاز: من يعيبهم بقوله، ويطعن عليهم بالعبرة.

والهُمَزَةُ واللُّمَزَةُ والهِمَّاز واللَّمَّاز للمبالغة.

قوله: (ففاتحتها: ﴿وَيْلٌ﴾ كلمةٌ وعيدٌ وتهديدٌ) أي كما تعرفه العربُ في لسانها؛ فإنَّ العربَ اتخذت خمسَ كلماتٍ مُتَّفِقَةً الْوَزْنَ لإرادةِ التهديدِ والوعيدِ، وهي: (ويلٌ، وويحٌ، وويسٌ، وويكٌ، وويبٌ) فهذه خمسُ كلماتٍ على هذا الوزنِ لإرادةِ التَّهْدِيدِ، أشارَ إلى هذا ابنُ خالَوَيْه في كتابِ «ليس».

وَعَقَدْتُهُ نَظْمًا فَقُلْتُ:

وَيْلٌ وَوَيْحٌ ثُمَّ وَيْكَ وَيْسٌ وَيِبٌ لِتَهْدِيدٍ تُقَالُ الْخَمْسُ

* والحديثُ أنَّ «وَيْلَ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ»، حديثٌ لا يَصِحُّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ومن صفته حرصه على جمع المال وتعديده، فذكره الله به، فقال: ﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾، وهو لشدة ولعه بماله ﴿يَحْسَبُ﴾ لجهله ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾: فأبقاه في الدنيا؛ لأنَّ الخلود فيها أقصى أمانيه؛ إذ لا يؤمن بحياةٍ أخرى.

ثمَّ توَعَّده الله بأنَّ الأمر على خلاف ظنِّه، فما ماله بمخلِّده، وإنَّ الله معاقبه، فقال: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ﴾ وهو جواب قسم محذوف؛ أي والله ليُطرحَنَّ ﴿فِي الْحُطَمَةِ﴾ التي تحطم ما يُلقى فيها وتهشمه، ثمَّ هَوَّلَ شأنها وعظَّمه في قوله: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ﴾، ثمَّ فسرها بقوله: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ﴾؛ أي المُسَعَّرَةُ المُشَعَّلَةُ بالنَّاس والحجارة، ﴿الَّتِي﴾: من شدَّتها ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ فتنفذ من الأجساد إلى القلوب فتُحرقها، وألمَّ حرق القلوب أشدَّ من ألم غيرها لِلطَّفْها.

وأهلها محبوسون فيها، قد أيسوا من الخروج منها، لِمَا أخبر الله عنه بقوله: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ﴾ أي مُغلَّقةٌ عليهم، وهم يُعَذَّبون فيها ﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ أي أعمدةٍ طويلةٍ.



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْفِيلِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ • أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ • وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ • تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ • فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

ذكر الله تعالى في هذه السورة خبر أصحاب الفيل، وياشر بالمخاطبة بها الرسول ﷺ تقوية له وتثبيتاً؛ بإظهار قدرة ربّه الذي أرسله؛ فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ • أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ وهو استفهامٌ تقريرى؛ أي أما علمت كيف فعل ربك بأصحاب الفيل؟، الذين كادوا بيته وأرادوا هدمه، فجعل سعيهم وما دبّروه من شرٍّ في تضليلٍ؛ وهم الحبشة الذين جاؤوا مكة غزاةً مضميرين هدم الكعبة؛ انتقاماً من العرب، فإنّ ملكهم أبرهة بنى كنيسة عظيمة سمّاها (القليس)، وأراد أن يصرف حجّ العرب إليها، فجاء رجلٌ منهم فأحدث فيها تحقيراً لها؛ ليتسامع العرب بذلك فتُهونَ عليهم فغضب أبرهة وعزم على غزو مكة ليهدم الكعبة، فجهّز جيشاً عظيماً لا قبل للعرب به، واستصحب معه الفيل لهدمها، فلما وصلوا قرب مكة، خرج أهل مكة منها خوفاً على أنفسهم، فحبس الله الفيل ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾؛ أي جماعاتٍ متتابعةٍ متفرقة، ﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ تقذفهم بحصى صغيرة من سجّيل وهو الطين المتحجر، ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾؛ أي محطّمين كبقايا الزرع الذي دخلته البهائم فأكلته، وداسته بأرجلها، وطرحته على الأرض، بعد أن كان أخضر يانعاً، وكان هذا عام مولد النبي ﷺ.

قوله: (وكان هذا عام مولد النبي ﷺ)، فيه إشارة إلى فائدة لطيفة: وهي الإعراض عن موضع ذكر مولد النبي ﷺ في القرآن، فإنّ الإشارة إليه وقعت في سورة الفيل لما بينهما من التلازم؛ فإنّ واقعة الفيل كانت في عام مولده ﷺ.

* وَمِنْ طَرَائِقِ إِدْرَاكِ مَعَانِي التَّفْسِيرِ: رِعَايَةُ الاسْتِدْلالاتِ الْمُتَلَازِمَةِ، كَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي ذَكَرْنَاهُ.
وَالْبَخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَصْنَعُ هَذَا كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ:

بَابُ: الْحَوْضِ

وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]

فَإِنَّهُ لَمْ يُرَدَّ أَنَّ الْكَوْثَرَ هُوَ الْحَوْضُ، وَلَكِنْ لِمَا بَيْنَهُمَا مِنَ التَّلَازُمِ ذَكَرَ الْكَوْثَرَ مَعَ الْحَوْضِ؛ فَإِنَّ الْحَوْضَ يُمَدُّ مِنَ الْكَوْثَرِ، فَفِيهِ مِيزَابَانِ يَصُبَّانِ فِيهِ مَدَدُهُمَا مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، كَمَا صَحَّحَتْ بِذَلِكَ الْأَحَادِيثُ.



تفسيرُ

سُورَةِ قُرَيْشٍ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ • إِلَّا لِفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ • فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ • الَّذِي أَطْعَمَهُمْ

مِّنْ جُوعٍ وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾

هذه السُّورة مفردةٌ في قبيلة النَّبِيِّ ﷺ تعظيماً له ولهم، والجارُّ والمجرور في صدرها ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ﴾

متعلقٌ بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، ودخلتُ عليه الفاء لِمَا في الكلام من إرادة الشرط؛ إذ معناه:

إِنَّ نعم الله عليهم لا تُحصى، فإن لم يعبدوه لأجل ربوبيته المظهرَةِ بنعمه فليعبدوه لأجل إيلافهم؛ أي ما

لزموه واعتادوه مع الأنس به، ثم فسره بقوله: ﴿إِلَّا لِفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾، وهي رحلة تجارتهم في

الشتاء لليمن، وفي الصيف للشَّام.

وأخر ما أمرهم به اعتناءً بما قدَّم فقال: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾، وخصَّه بالربوبية لفضله وشرفه،

ثم أبرز بعض ما طواه قبلُ من نعمه عليهم الموجبة لعبادته فقال: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّنْ جُوعٍ﴾ فرزقهم من

الثمرات، وهياً لهم أسباب التِّجارات، ﴿وَعَآمَنَهُمْ مِّنْ خَوْفٍ﴾ فصيرَ بلدهم حرماً آمناً، وأعظمَ قدرهم عند

الخلق فلا يتعرض لهم أحدٌ بسوءٍ؛ لأنَّهم جيران الكعبة المعظمة.

فانتظام سياق معانيها في وضع الكلام: لِتَعْبُدُ قُرَيْشُ رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ؛ لِمَا أنعم عليهم في رحلة الشتاء

والصَّيف، فأطعمهم من جوعٍ وآمنهم من خوفٍ.

قوله: (وهي رحلة تجارتهم في الشتاء لليمن، وفي الصيف للشَّام) أين في اليمن؟ لماذا يذهبون في الشتاء

إلى اليمن؟ أليست صنعاء؟ ليس المراد صنعاء، لأنَّ صنعاء باردة فلا يُذهب إليها في الشتاء، وإنَّما المرادُ

تهامة، هي المرادة في رحلتهم إليها في الشتاء؛ فإنَّها تكون دافئةً.

* وتهامة: بكسر التاء. لماذا سُميت تهامة، وليس تهامة؟

[الجواب]: لأنَّها موضعٌ مُنخفض، فالخفضُ يُناسِبُه الكسر^(١) فيقال: «تهامة»، وأمَّا النسبة إليها فيقال:

«التهامي» بالضم. «النبِيُّ التَّهامي» بضم التاء، وأمَّا البلد أو الموضع فيقال: «تهامة».

^(١) قال الشيخ في هذا الموضع مخاطباً الطلاب ومنبِّهاً: (احفظوها أنتم)

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْمَاعُونِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ • فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ • وَلَا يُخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ •
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ • الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ • وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾

يقول تعالى في ذم من ضيع حقه وحقوق عباده: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ﴾ وهو الحساب والجزاء على الأعمال، والاستفهام للتعجب من حالهم، وما أورثهم تكذيبهم من سوء الصنيع، ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾؛ أي: فهو ذلك الذي يدفع اليتيم بعنفٍ وشدة، ويمنعه حقه؛ لغلظة قلبه، وتكذيبه جزاء ربه، ﴿وَلَا يُخْضُ﴾ غيره - والحض: الحث - ﴿عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾، وأحرى به أنه لا يطعمه بنفسه؛ لمحبتة المال وبخله به.

ثم توعد صنفاً من المصلين هم المنافقون، فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾؛ أي لاهون، فلا يؤدونها في وقتها، ولا يقيمونها على وجهها.

وفي «صحيح مسلم» عن أنس بن مالك قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «تلك صلاةُ المنافق: يجلسُ يرقُبُ الشمسَ، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان؛ قام فنقرها أربعاً، لا يذكرُ الله فيها إلا قليلاً». والسَّهْوُ عن الصَّلَاةِ هو المُسْتَشَنَعُ المذموم، وأما السَّهْوُ فيها فيقع من كلِّ أحدٍ؛ لأنَّه واردٌ قلبيٌّ لا اختيارٌ للعبد فيه.

فالسَّهْوُ عَنِ الصَّلَاةِ مُرَكَّبٌ مِنْ أَمْرَيْنِ:

- أحدهما: تركُ أدائها في وقتها، وإليه الإشارةُ في الحديثِ بقوله: «يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيْ الشَّيْطَانِ».

- والآخر: تركُ إقامتها على وجهها، وإليه الإشارةُ في الحديثِ بقوله: «فَنَقَرَهَا أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا».

* والسَّهْوُ عَنِ الصَّلَاةِ هو المُسْتَشَنَعُ المذمومُ شرعاً، وأما السَّهْوُ فِي الصَّلَاةِ فَإِنَّهُ يَقَعُ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ؛ لأنَّه واردٌ قلبيٌّ يهجمُ على العبد، فلا اختيارَ له فيه.

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ وَصَفَهُم بِالرِّيَاءِ وَالْحَرَصِ عَلَى الدُّنْيَا، فَقَالَ: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾ فَيُظْهِرُونَ أَعْمَالَهُم الصَّالِحَةَ لِيَرَاهَا النَّاسُ؛ فَيَحْمَدُوهُمْ عَلَيْهَا، ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ أَيِ يَمْنَعُونَ النَّاسَ مَنَافِعَ مَا عِنْدَهُمْ، كَالزَّكَاةِ وَمَا لَا تَضُرُّ إِعَارَتَهُ، مِمَّا يُسْتَعَانُ بِهِ عَلَى عَمَلِ الْبَيْتِ مِنْ آتِيَةٍ وَآلَةٍ؛ وَمِنْهَا الْقَدَرُ وَالِدَّلُو وَمَا جَرَتْ الْعَادَةُ بِبَدْلِهِ؛ لَشِدَّةِ حَرَصِهِمْ عَلَى الدُّنْيَا وَشُحِّهِمْ بِهَا، فَلَا هُمْ أَحْسَنُوا عِبَادَةَ رَبِّهِمْ، وَلَا هُمْ أَحْسَنُوا مَعَامِلَةَ خَلْقِهِ.

قَوْلُهُ: (فَيُظْهِرُونَ أَعْمَالَهُم الصَّالِحَةَ) إِلَى آخِرِهِ، فِيهِ أَنَّ الرِّيَاءَ هُوَ: إِظْهَارُ الْعَبْدِ عَمَلِهِ لِيَرَاهُ النَّاسُ فَيَحْمَدُوهُ عَلَيْهِ، فَإِنْ قَصَدَ أَنْ يَسْمَعُوهُ سُمِّيَ: «تَسْمِيعًا».

* فَالْفَرْقُ بَيْنَ الرِّيَاءِ وَالتَّسْمِيعِ هُوَ أَنَّ:

- آلَةُ الرِّيَاءِ: الْبَصَرُ.

- وَآلَةُ التَّسْمِيعِ: السَّمْعُ.

* يَعْنِي فِي حَدِيثِ جُنْدُبٍ فِي «الصَّحِيحَيْنِ»: «مَنْ رَأَى رَأَى اللَّهَ بِهِ، وَمَنْ سَمِعَ سَمِعَ اللَّهَ بِهِ».

- فَالْأَوَّلُ مُتَعَلِّقُهُ: الرُّؤْيُ بِالْعَيْنِ.

- وَالثَّانِي مُتَعَلِّقُهُ: السَّمْعُ بِالْأُذُنِ.

* وَلِذَلِكَ لَا يُقَالُ: (أَنَا سَأَذْهَبُ لِأَسْمَعَ عِنْدَ فُلَانٍ) أَوْ: (عِنْدَنَا تَسْمِيعٌ)، نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَافِيَةَ! عِنْدَكُمْ تَسْمِيعٌ؟! هَذَا مَذْمُومٌ فِي الشَّرْعِ! وَلَا يَصِحُّ فِي اللُّغَةِ، هَذَا غَلَطٌ! إِنَّمَا يَقُولُ الْإِنْسَانُ: (إِسْمَاعٌ)، وَأَحْسَنُ مِنْهُ أَنْ يَقُولَ: (عَرَضٌ)، فَيَقُولُ: «أَنَا أَذْهَبُ إِلَى الشَّيْخِ فُلَانٍ أَعْرِضُ عَلَيْهِ مَحْفُوظِي» هَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ فِي لُغَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَإِذَا قِيلَ إِسْمَاعٌ - فِي الْوَضْعِ اللَّغَوِيِّ - فَهُوَ صَحِيحٌ، وَأَمَّا التَّسْمِيعُ فَلَا يَصِحُّ شَرْعًا وَلَا لُغَةً.



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْكَوْثَرِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ • فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ • إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾

امتنَّ اللهُ ﷻ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَقَالَ لَهُ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾؛ وَهُوَ نَهْرٌ فِي الْجَنَّةِ، وَمِنْهُ يَشْخُبُ

مِيزَابَانِ يَصُبَّانِ فِي حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَرَصَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

قَوْلُهُ: (وَمِنْهُ يَشْخُبُ مِيزَابَانِ يَصُبَّانِ فِي حَوْضِ النَّبِيِّ ﷺ فِي عَرَصَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ) ثَبَتَ الْوَصْفُ الْمَذْكُورُ

فِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ».

(وَالشَّخْبُ): جَرِيٌّ بِشِدَّةٍ وَانْجِبَاسٍ، وَلِذَلِكَ الْحَلِيبُ الَّذِي يَخْرُجُ مِنَ الضَّرْعِ يُقَالُ لَهُ (شَخْبٌ) فِي

لَهَجَتِنَا، يُقَالُ لَهُ: (شَخْبُ الْحَلِيبِ)؛ لِأَنَّهُ يَخْرُجُ بِشِدَّةٍ وَانْجِبَاسٍ.

وَهَذَا الْحَدِيثُ يُبَيِّنُ اتِّصَالَ الْحَوْضِ بِالْكَوْثَرِ - عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ - وَأَنَّ مَدَدَ الْحَوْضِ مِنْ مَاءِ الْكَوْثَرِ.

(وَالْمِيزَابُ): هِيَ قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيدٍ وَنَحْوِهِ تُجْعَلُ فِي أَعَالِي مَوْضِعٍ مُرْتَفِعٍ لِيَخْرُجَ مِنْهَا الْمَاءُ الْمُجْتَمِعُ فِيهِ.

الْمَوْجُودُ فِي بَيْوتِ النَّاسِ إِلَى الْيَوْمِ، هَذَا هُوَ الْمِيزَابُ.

(وَالْعَرَصَاتُ): الْمُتَسَّعَاتُ.

مَرَّتْ مَعْنَا فِي «الْوَاسِطِيَّةِ» فِي مَوْضِعَيْنِ: فِي الرُّؤْيَا، وَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي آخِرِهِ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

وفي «صحيح مسلم» عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهَرِنَا؛ إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّمًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ أَنْفَا سُورَةٌ»، فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَحْزَرْ﴾ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، ثُمَّ قَالَ «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟»، فَقُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي ﷺ، عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ، هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، آيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ، فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ فَأَقُولُ: رَبِّ إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي، فيقول: ما تدري ما أَعَدْتُكَ بِعَدِّكَ».

هذا الحديثُ الذي ذَكَرَهُ الْمُصَنِّفُ - وَجَعَلَهُ تَفْسِيرًا لِلْكَوْثَرِ - وَرَدَ فِي مَعْنَاهُ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تُبَيِّنُ أَنَّ الْكَوْثَرَ نَهْرٌ أُعْطِيَهِ النَّبِيُّ ﷺ. وَتَفْسِيرُ الْآيَةِ بِكَوْنِهِ النَّهْرُ أَكْمَلُ مِنْ تَفْسِيرِهَا بِأَنَّهُ الْخَيْرُ الْكَثِيرُ، لِأَنَّ الْخَيْرَ الْكَثِيرَ لَا يَخْتَصُّ بِالنَّبِيِّ ﷺ فِي الْجَنَّةِ؛ بَلْ كُلُّ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ فَإِنَّ لَهُ ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨] يَعْنِي غَيْرَ مَقْطُوعٍ، وَكَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي آخِرِ سُورَةِ عَمَّ: ﴿عَطَاءٌ حَسَابًا﴾ [النبا: ٣٦]، وَالتَّنْكِيرُ لِلتَّعْظِيمِ، فَكُلُّ دَاخِلٍ لِلْجَنَّةِ يَنَالُهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ. وَالْآيَةُ سَيِّقَتْ لِلَامْتِنَانِ، وَالْمُنَاسِبُ لِلَامْتِنَانِ اخْتِصَاصُ النَّبِيِّ ﷺ بِشَيْءٍ لَا يَكُونُ لغيرِهِ مِنْ ذَلِكَ الْخَيْرِ، وَذَلِكَ الَّذِي يَكُونُ لِلنَّبِيِّ ﷺ دُونَ غَيْرِهِ هُوَ نَهْرُ الْكَوْثَرِ.

* وَاضِحُ الْفَرْقِ بَيْنَ الْخَيْرِ الْكَثِيرِ وَبَيْنَ أَنَّهُ النَّهْرُ؟

أَنَّ النَّهْرَ هُوَ الَّذِي يَظْهَرُ فِيهِ الْإِمْتِنَانُ، وَالْآيَةُ جِيءَ بِهَا لِلَامْتِنَانِ: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ يَعْنِي مِنْهُ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

* وَمِنْ اللَّطَائِفِ التَّفْسِيرِيَّةِ: أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَتَيْنِ بُدِّئَا بِهَذَا تَعَلُّقًا بِالنَّبِيِّ ﷺ:

- إِحْدَاهُمَا: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١].

- وَالْأُخْرَى: ﴿إِنَّا كَفَيْتَكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [إبراهيم: ٩٥].

فَالْآيَةُ الْأُولَى: لِلْعَنَايَةِ، هَذِهِ لِلْعَنَايَةِ بِالنَّبِيِّ ﷺ.

وَالْآيَةُ الثَّانِيَّةُ: لِلْوَقَايَةِ، يَعْنِي حِفْظَهُ ﷺ مِنْ كُلِّ مَنْ أَرَادَهُ بِسُوءٍ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ولمَّا ذَكَرَ مِنْتَهُ عَلَيْهِ، أَمَرَهُ بِشُكْرِهَا، فَقَالَ: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾؛ أَيِ أَخْلِصْ صَلَاتَكَ كُلَّهَا لِرَبِّكَ، وَاجْعَلْ ذَبْحَكَ لَهُ وَعَلَى اسْمِهِ وَحْدَهُ، وَخَصَّ هَاتَيْنِ الْعِبَادَتَيْنِ بِالذِّكْرِ لِفَضْلِهِمَا، فَالصَّلَاةُ تَتَضَمَّنُ خُضُوعَ الْقَلْبِ وَالْجَوَارِحِ لِلَّهِ، وَالنَّحْرُ يَتَضَمَّنُ التَّقَرُّبَ إِلَيْهِ بِسَفْكَ الدَّمِّ مِنَ النَّحَائِرِ الْمُشْتَمِلِ عَلَى سَمَاحَةِ النَّفْسِ بِالْمَالِ.

ثُمَّ ذَكَرَ مِنْ مِتَّتِهِ عَلَيْهِ أَيْضًا خَسَارُ شَانَتِهِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ شَانِيكَ﴾؛ أَيِ: مَبْغُضِكَ ﴿هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ الْمَقْطُوعُ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

قَوْلُهُ: (فَقَالَ: ﴿إِنَّ شَانِيكَ﴾؛ أَيِ: مَبْغُضِكَ) والمرادُ بـ«إِبْغَاضِهِ»: إِبْغَاضُ شَخْصِهِ أَوْ مَا جَاءَ بِهِ ﷺ، فَمَنْ أَبْغَضَ النَّبِيَّ ﷺ أَوْ أَبْغَضَ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ مَقْطُوعٌ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ.

* وَاضِحٌ؟ طَيِّبٌ طَبَّقُوا، طَبَّقُوا فِي وَاقِعِنَا! أَطَبَّقْ لَكُمْ أَنَا فِي الْوَاقِعِ.

الدُّمُقْرَاطِيَّةُ لَنْ تَسْتَمِرَّ لِأَنَّهَا مُخَالِفَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، سَتَنْقَطِعُ! كُلُّ مَا خَالَفَ النَّبِيَّ ﷺ سَيَنْقَطِعُ كَمَا انْقَطَعَ كُلُّ مَا تَقَدَّمَ مِمَّا خَالَفَ النَّبِيَّ ﷺ، فَإِنَّهُ سَيَنْقَطِعُ مَا اسْتَجَدَّ مِنْ عِنْدِ النَّاسِ وَإِنْ غُرُّوا بِهِ بُرْهَةً مِنَ الزَّمَنِ، فَالنَّاسُ غُرُّوا فِيمَا مَضَى بِالشُّيُوعِيَّةِ، وَالْقَوْمِيَّةِ، وَالْوَطَنِيَّةِ، ثُمَّ اضْمَحَلَّتْ كُلُّهَا. وَكُلُّ شَيْءٍ يَسْتَجِدُّ لِلنَّاسِ يُخَالِفُ مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ فَإِنَّهُ مُنْقَطِعٌ لَا مَحَالَةَ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِي صِدْقِ الْيَقِينِ، لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَغْتَرُّونَ بِالْحَوَادِثِ، هَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّتِي يُمَيِّزُ بِهَا الْحَقَّ مِنَ الْبَاطِلِ وَالْخَبِيثِ مِنَ الطَّيِّبِ. وَلِذَلِكَ فِي الزَّمَنِ الْمَاضِي هُنَاكَ كُتِبَ أَلْفَتْ فِي «اشْتِرَاكِيَّةِ الْإِسْلَامِ»، وَ«أَبُو ذَرٍّ الْإِسْتِرَاكِي»، وَ«الْإِسْتِرَاكِيَّةُ فِي الْقُرْآنِ»، هَذِهِ كُلُّهَا أَلْفَهَا نَاسٌ مَنْسُوبِينَ لِلْعِلْمِ وَالشَّرِيعَةِ، وَذَهَبَتْ كُتُبُهُمْ. [الآن لو ذهبتهم تبحثون - في الجامعة أو المكتبات - عن «اشْتِرَاكِيَّةِ الْإِسْلَامِ» ما تجده]، وَقَبْلُ كَانَ كِتَابًا نَارِيًّا تَتَلَقَّفُهُ الْأَيْدِي وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ أَنَّهُ فِكْرٌ جَدِيدٌ يُمَكِّنُ أَنْ يُحْدِثَ تَغْيِيرًا فِي الْعَالَمِ الْمُعَاصِرِ، فَذَهَبَ إِلَى مَزْبَلَةِ التَّارِيخِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يُخَالِفُ الشَّرْعَ سَيَذْهَبُ إِلَى مَزْبَلَةِ التَّارِيخِ، وَلَكِنَّ الشَّأْنَ فِي يَقِينِكَ وَثَبَاتِكَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَالْإِعْتِرَازُ بِهِ حَتَّى تَبْلُغَ مَا قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ عَنْ نَفْسِهِ: (لَوْ شَكَّ النَّاسُ كُلُّهُمْ فِي الطَّرِيقِ، مَا شَكَّتُ فِيهِ وَحْدِي)، هَذِهِ مَرْتَبَةٌ عَظِيمَةٌ! لَوْ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ شَكُّوا فِي الطَّرِيقِ فَإِنَّهُ لَا يَشْكُ فِيهِ لِتَيَقُّنِهِ بِأَنَّهُ وَاضِعٌ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَمَنْ وَضَعَ قَدَمَهُ عَلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ فَلَا يُبَالِي بِمَنْ هَلَكَ، فَلَا تَنْظُرُ إِلَى مَنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ! وَلَكِنْ انْظُرْ مَنْ نَجَّى كَيْفَ نَجَّى! وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْهَالِكِينَ، فَإِنَّ أَكْثَرَ

النَّاسَ هَلَكَى، ولكن انظر إلى حال النّاجين، كيف نَجَى مَنْ نَجَى مِنْ هذه المَوَجاتِ الفِكْرِيَّة التي اكتَسَحَتِ العالَمَ والإسلامَ في العُقُودِ الماضية! وكيف سَيَهْلِكُ أناسٌ بالموجاتِ المُعاصِرة وسينجُو أناس. فينبغي أن ينظرَ الإنسان سبيلَ نجاتِهِ، وأن يَعْلَمَ أَنَّهُ يَصِيرُ إلى اللهِ سبحانه وتعالى وحده، وأنَّه لا يُغني عنه فصاحتُ لسانِهِ، ولا قوَّةُ جَنانِهِ، ولا حُسْنَ تَغْرِيدِهِ، ولا كَثَرَةُ جَمْعِهِ، ولا إرسالَ دَمْعِهِ، فإنَّما يُغنيكَ عَمَلُكَ عندَ اللهِ سبحانه وتعالى وأمرُكَ الذي ثَبَّتَ عليه في هذه الدَّارِ، فإنَّ ثَبَّتَ على ما جاء به النبي ﷺ أَفْلَحْتَ! وإنَّ أَخَذْتَ يَمِينًا أو يسارًا هَلَكْتَ!



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

وروى النسائي في «السُّنن الكبرى» عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ مَكَّةَ، قَالَتْ لَهُ قُرَيْشٌ: أَنْتَ خَيْرُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَسَيِّدُهُمْ، قَالَ: نَعَمْ، قَالُوا: أَلَا تَرَى إِلَى هَذَا الْمُنبِتِ مِنْ قَوْمِهِ؟، يَزْعُمُ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنَّا، وَنَحْنُ - يَعْنِي أَهْلُ الْحَجِيجِ، وَأَهْلُ السَّدَانَةِ -!، قَالَ: أَنْتُمْ خَيْرٌ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، وَنَزَلَتْ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّلُغُوتِ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُو نَصِيرًا﴾ [النِّسَاء: ٥١-٥٢]. وإسناده صحيح.



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْكَافِرُونَ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ • لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ • وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ • وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ • وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ • لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾

أمر الله رسوله ﷺ في هذه السورة أن يُبلِّغ الكافرين أمراً عظيماً فقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ الباقون على كفركم: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ من الآلهة في المستقبل، كما أنني لا أعبدُها الآن.

المراد من قوله ﷺ: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، تأييدهم من موافقته ﷺ لهم على دينهم، فهو ثابتٌ على دين الله الذي أنزله عليه، لا يتغير ولا يتحول عنه ﷺ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْ حَالِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وَهُوَ اللَّهُ الْمُسْتَحَقُّ وَحْدَهُ لِلْعِبَادَةِ، فَعِبَادَتُكُمْ إِلَيْهِ وَأَنْتُمْ تُشْرِكُونَ بِهِ لَا تُسَمِّي عِبَادَةً، ثُمَّ كَرَّرَ بَرَاءَتَهُ مِنْ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى الثَّبَاتِ، وَتَأْيِيدِهِمْ مِنْ عِبَادَتِهِ لَهَا، وَأَخْبَرَ عَنْ تَحَقُّقِ تَكْذِيبِهِمْ فَقَالَ: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ صَارَ وَصْفًا لَازِمًا لَهُمْ: أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

فَلِكُلِّ دِينِهِ الَّذِي رَضِيَهُ؛ قَالَ تَعَالَى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ أَيَّ لَكُمْ دِينُكُمْ الَّذِي رَضِيْتُمُوهُ وَهُوَ الشِّرْكَ، وَلِيَ دِينِي الَّذِي رَضِيَهُ لِي رَبِّي وَهُوَ الْإِسْلَامُ.

فَالْفَرْقُ بَيْنَ الْإِضَافَتَيْنِ: أَنَّ دِينَ الْمُشْرِكِينَ نَتَاجُ الْأَهْوَاءِ، وَدِينَ النَّبِيِّ ﷺ أَمْرُ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ.

– فالأَوَّلُ: حَمَلَهُ عَلَيْهِ الْهَوَى فَاتَّبَعَهُ.

– والثَّانِي: حَمَلَهُ عَلَيْهِ الْهُدَى فَاحْتَمَلَهُ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ

سُورَةِ النَّصْرِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ • وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا • فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

تَضَمَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ بَشَارَةً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَإِشَارَةً عِنْدَ حَصُولِهَا وَأَمْرًا.

فَالِإِشَارَةُ هِيَ الْبَشَارَةُ بِنَصْرِ اللَّهِ لَهُ عَلَى الْكَافِرِينَ، وَوُقُوعِ فَتْحِ مَكَّةَ، وَدُخُولِ النَّاسِ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا؛ أَيْ جَمَاعَاتٍ تَلَوَّ جَمَاعَاتٍ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ • وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾.

وَأَمَّا الْإِشَارَةُ وَالْأَمْرُ فَهِيَ الْإِشَارَةُ إِلَى دُنُوِّ أَجَلِهِ ﷺ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، فَإِنَّ عُمَرَةَ ﷺ عُمَرُ فَاظِلٍّ أَقْسَمَ اللَّهُ بِهِ، وَالْأُمُورَ الْفَاضِلَةَ تُخْتَمُ بِالِاسْتِغْفَارِ، كَالصَّلَاةِ وَالْحَجِّ، فَأَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُسَبِّحَهُ مَعَ حَمْدِهِ وَيَسْتَغْفِرَهُ؛ فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى انْقِضَاءِ عُمَرِهِ، لِيَتَهَيَّأَ لِلِقَاءِ رَبِّهِ.

كُونُ هَذِهِ السُّورَةِ فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى دُنُوِّ أَجَلِهِ ﷺ، اسْتَنْبَطَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا،

جَاءَ هَذَا فِي «الصَّحِيحِينَ» فِي قِصَّةٍ طَوِيلَةٍ.

* وَأَمْرُ الْاسْتِنْبَاطِ أَمْرٌ فَوْقَ التَّفْسِيرِ.

– فَإِنَّ التَّفْسِيرَ: مَعْرِفَةُ الْمَعَانِي.

– وَأَمَّا الْاسْتِنْبَاطُ: فَهُوَ اسْتِخْرَاجُ عُلُومِهِ ^(١)، تَعَزُّبُ الْإِحَاطَةِ بِهَا عَنْ كَثِيرٍ مِمَّنْ يُفَسِّرُ الْقُرْآنَ.



(١) أَوْ قَالَ: [عُلُومٌ].

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يُوفِّقُ الْخَلْقَ لِلتَّوْبَةِ وَيَقْبَلُهَا مِنْهُمْ، فَكَانَ ﷺ يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ، وَيُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي». مَتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

قَوْلُهُ: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ يُوفِّقُ الْخَلْقَ لِلتَّوْبَةِ وَيَقْبَلُهَا مِنْهُمْ) فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ تَوْبَةَ اللَّهِ عَلَى عَبْدِهِ تَشْمَلُ أَمْرَيْنِ:

- أحدهما: تَوْفِيقُهُ إِلَى إِيقَاعِهَا وَالْقِيَامِ بِهَا.
 - وَالْآخَرُ: قَبُولُهَا مِنْهُ وَإِثَابَتُهُ عَلَيْهَا.
- أشارَ إلى هذا ابنُ تيمِّيَّةَ الحفِيدُ فِي «قَاعِدَةِ التَّوْبَةِ» الْمَطْبُوعَةِ بِاسْمِ: «رِسَالَةِ التَّوْبَةِ».



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْمَسَدِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ • مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ • سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ • وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ • فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الصَّفا، فَجَعَلَ يُنَادِي: يَا بَنِي فِهْرٍ، يَا بَنِي عَدِيٍّ؛ لِبُطُونِ قُرَيْشٍ حَتَّى اجْتَمَعُوا، فَجَعَلَ الرَّجُلُ إِذَا لَمْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَخْرُجَ أَرْسَلَ رَسُولًا؛ لِيَنْظُرَ مَا هُوَ، فَجَاءَ أَبُو لَهَبٍ وَقُرَيْشٌ، فَقَالَ: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالْوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟!»، قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: تَبًّا لَكَ سَائِرَ الْيَوْمِ، أَلْهَذَا جَمَعْتُنَا؟! فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ • مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾.

وَأَبُو لَهَبٍ مِنْ أَعْمَامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَكَانَ شَدِيدَ الْعَدَاوَةِ وَالْأَذْيَةِ لَهُ، فَهَلَكَ بِذَلِكَ، وَأَخْبَرَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ امْرَأَتِهِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ فَقَالَ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾؛ أَيِ خَسِرَتْ يَدَاهُ، ﴿وَتَبَّ﴾ فَلَمْ يَرْبِحْ، وَالْجُمْلَةُ الْأُولَى دَعَاءٌ عَلَيْهِ، وَالثَّانِيَةُ خَبَرٌ عَنْهُ، وَ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ وَكَسَبُهُ: وَلَدُهُ، فَلَنْ يَرُدَّ عَنْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ شَيْئًا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِذَا نَزَلَ بِهِ.

وَقَدْ تَوَعَّدَهُ اللَّهُ بِقَوْلِهِ: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾؛ أَيِ سَيَدْخُلُ نَارًا عَظِيمَةً تَتَوَقَّدُ فَيَصْلَاهَا، ﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، وَهِيَ أُمُّ جَمِيلٍ الَّتِي كَانَتْ تَحْمِلُ أَغْصَانِ الشَّجَرِ الْكَبِيرَةِ ذَاتِ الشَّوْكِ، فَتُلْقِيهَا فِي طَرِيقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ أَذْيَةً لَهُ، فَأَعَدَّ اللَّهُ لَهَا فِي عُنُقِهَا حَبْلًا مِنْ مَّسَدٍ؛ لِقَوْلِهِ مُخْبِرًا: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ وَالْمَسَدُ: اللَّيْفُ الشَّدِيدُ الْخَشُونَةُ إِذَا قُتِلَ وَجُدِلَ؛ كَضَفَائِرِ الشَّعْرِ.

وَكَانَ نَزُولُ هَذِهِ السُّورَةِ قَبْلَ مَوْتِ أَبِي لَهَبٍ وَامْرَأَتِهِ، وَأَخْبَرَ اللَّهُ أَنَّهُمَا سَيُعَذَّبَانِ فِي النَّارِ، فَلَنْ يُسْلِمَا، فَوَقَعَ الْأَمْرُ كَمَا أَخْبَرَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

هذه السورة مُتعلِّقَةٌ بِرَجُلٍ وامرأة:

- فالرَّجُلُ: هو أبو لهب، وذكر فيها بكنيته.

- والمرأة: هي أم جميل، وأُبهَمَ ذِكْرُها فقل: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾.

* لماذا وقع هذا في السورة؟ لماذا الرُّجُلُ ذَكَرَ بكنيته والمرأة طُويَ ذِكْرُها؟

ذَكَرَ أبو لهبٍ بكنيته مع أَنَّ ذِكْرَ الكُنيةِ عندَ العربِ تكريمٌ. ذَكَرَ الرَّجُلُ بكنيته تكريمٌ له، ولذلك لم يَكُنِ العَرَبِيُّ إِذَا سُئِلَ: «من أنت؟»، قال: «أبو فلان» هذا العرب لا تعرفه، إلى وقتٍ قريبٍ، إلى تقريباً ألف وأربع مائة ما يُقال هذا؛ لأنَّك معناه تَمَدَّحَ نَفْسِكَ: «أنا أبو فلان»، ولذلك العرب تُعرِّفُ بِأَسْمَائِها، والعربُ إِذَا عَظَّمَت أحداً أَعْلَى ما تَمَنَّحُهُ مِنَ التَّعْظِيمِ أَنَّ تَنَادِيَهُ بِالكُنيةِ، ولذلك فإنَّ التعريفَ بِالكُنيةِ ما حُكِمَ؟ الصحيح: أَنَّ التعريفَ بِالكُنيةِ مَكْرُوهٌ لِمَا فِيهِ مِنَ إِعْظَامِ النَّفْسِ وَمَدْحِها؛ لأنَّ هذا عندَ العربِ وَجْهٌ مِنَ التَّكْرِيمِ، فأنتَ إِذَا أَرَدْتَ أَنَّ تَنَادِيَ مُعْظَماً لا تقول: «فلان»، وإنَّما تقول: «يا أبا فلان»، ولا ينبغي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُبَادِرَ بِإِعْظَامِ نَفْسِهِ وَإِكْرَامِها، والصحيحُ فِيهِ الكَرَاهَةُ، وإنَّما يُعرِّفُ الإِنْسَانُ بِاسْمِهِ فيقول: «فلان بنُ فلان الفلاني»، هذا هو الذي تعرفه العرب، وهو الذي جاء به الشرع.

* وجاء هاهنا بِذِكْرِهِ مُكَنَّى لِأَمْرَيْنِ:

- أحدهما: أَنَّ فِي ذَلِكَ إِبْلَغاً فِي إِهَانَتِهِ وَإِذْلَالِهِ عَلَى حَدِّ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدُّخان: ٤٩]، فَإِنَّهُ قِيلَ لَهُ ذَلِكَ لِلإِبْلَغِ فِي إِهَانَتِهِ، فَإِنَّكَ إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّكَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ فَذُقِ الْهَوَانَ وَالْمَذَلَّةَ، فَكَذَلِكَ ذَكَرَ أَبِي لَهَبٍ بِهَذَا لِلإِمْعَانِ فِي إِذْلَالِهِ وَإِهَانَتِهِ، وَأَنَّهُ وَإِنْ كَانَ مُعْظَماً عِنْدَ الْخَلْقِ بِكُنْيَتِهِ فَهُوَ مُهَانٌ عِنْدَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِذِكْرِ مَا لَهُ مِنَ الْعِقَابِ.

- والآخر: أَنَّ فِي كُنْيَتِهِ إِشَارَةً إِلَى عِقَابِهِ لِمَا فِيهَا مِنَ اللَّهَبِ الْمُشِيرِ إِلَى صِفَةِ النَّارِ؛ فَإِنَّ النَّارَ «تَلْهَبُ» أَي تَشْتَعِلُ.

وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فَطُويَ ذِكْرُها لِأَنَّها «أُمُّ جَمِيلٍ»، وَذَكَرُها بِهَذِهِ الْكُنيةِ لَا يُنَاسِبُ ذِكْرَ عَذَابِها وَوَعِيدِها، فَطُويَ ذِكْرُ اسْمِها وَأُشِيرَ إِلَيْها بِقَوْلِهِ: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ عَلَى وَجْهِ الإِبْهَامِ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْإِخْلَاصِ

عن أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «أَيَعِزُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يقرأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»، قالوا: وكيفَ يقرأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ. رواه مسلم.

وعن أَبِي بِنِ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ الْمَشْرِكِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: اُنْسُبْ لَنَا رَبَّكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. رواه الترمذي وغيره، وهو حديث حسن.

وجهُ التَّثْلِيثِ المذكورِ فِي الْحَدِيثِ الْأَوَّلِ - فِي أَصَحِّ الْأَقْوَالِ - هُوَ أَنَّ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةُ أَثْلَاثٍ:

- فالأَوَّلُ: ثُلُثٌ، هُوَ خَبَرٌ عَنِ الْخَالِقِ.
 - والثَّانِي: ثُلُثٌ، هُوَ خَبَرٌ عَنِ الْمَخْلُوقِ.
 - والثَّالِثُ: ثُلُثٌ، هُوَ خَبَرٌ عَنِ حَقِّ الْخَالِقِ عَلَى الْمَخْلُوقِ.
- وهذه السُّورَةُ مُتَمَحِّضَةٌ فِي الْخَبَرِ عَنِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، اخْتَارَ هَذَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُحَقِّقِينَ كَأَبِي الْعَبَّاسِ بْنِ تَيْمِيَّةٍ وَتَلْمِيزُهُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْقِيِّمِ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ • اللَّهُ الصَّمَدُ • لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ • وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

لَمَّا كَانَ الدِّينُ مَبْنِيًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ؛ أَخْلَصَ اللَّهُ هَذِهِ الشُّورَةَ لِنَفْسِهِ، أَمْرًا رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يُبَلِّغَ عَنْهُ فَقَالَ لَهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ أَيُّ قُلِّ أَتَيْهَا الرَّسُولُ مَبْلَغًا: إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْأَحَدُ الْمَنْفَرِدُ بِالْكَمَالِ، الْمَتَفَرِّدُ بِالْأُلُوْهِيَّةِ وَالرُّبُوبِيَّةِ وَالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، فَلَا يُشَارِكُهُ أَحَدٌ فِيهَا.

وَأَنَّهُ هُوَ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؛ أَيُّ السَّيِّدِ الْكَامِلِ الْمَقْصُودِ فِي قَضَاءِ الْحَوَائِجِ، فَالْخَلْقُ مُفْتَقِرُونَ إِلَيْهِ، وَهُوَ مُسْتَعْنٍ عَنْهُمْ، وَمِنْ كَمَالِهِ ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾، فَلَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَا وَالِدٌ، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فَلَا يُكَافِئُهُ أَحَدٌ فِي ذَاتِهِ، وَلَا فِي أَسْمَائِهِ، وَلَا فِي صِفَاتِهِ، وَلَا فِي أَفْعَالِهِ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وَصَمَدَانِيَّةُ اللَّهِ تَجْمَعُ مَعْنَيْنِ:

- أَحَدُهُمَا: كَمَالُ سُؤْدَدِهِ فِي نَفْسِهِ.

- وَالْآخَرُ: تَوَجُّهُ الْخَلْقِ إِلَيْهِ فِي ابْتِغَاءِ حَوَائِجِهِمْ وَافْتِقَارِهِمْ إِلَيْهِ.



تَفْسِيرُ

سُورَةِ الْفَلَقِ

عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ اللَّيْلَةَ؛ لَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» رواه مسلم.

ومعنى «لَمْ يُرَ مِثْلُهَا قَطُّ» في الاستعاذة بهنَّ، وكان الرسول ﷺ إذا أوى إلى فراشه كلَّ ليلةٍ جمعَ كَفِّهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا بِالْإِخْلَاصِ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ، ثُمَّ يَمَسُّحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ. رواه البخاري.

وكان ﷺ إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، وَيَمَسُّحُ بِيَدِهِ، وَإِذَا مَرِضَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهِ نَفَثَ عَلَيْهِ بِهَا. متفقٌ عليه.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ • مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ • وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ • وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ

فِي الْعُقَدِ • وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ •

أمر الله الرسول ﷺ في سورة الإخلاص أن يقول مبلِّغاً، وأمره في سورة الفلق والنَّاس أن يقول متعوِّذاً، فقال له هنا: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أي أَلْجَأُ وَأَعْتَصِمُ؛ ﴿بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ وهو الصُّبْح، ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ الله من المخلوقات، وأريد به بعضها، وهو كلُّ مخلوقٍ فيه شرٌّ.

قوله: (وهو كلُّ مخلوقٍ فيه شرٌّ) فيه إشارةٌ إلى أنَّ العمومَ في قوله تعالى: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ دَخَلَهُ التَّخْصِيصُ، فلا يُرادُ به الاستعاذةُ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ، وإنما يُرادُ به الاستعاذةُ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ فِيهِ شَرٌّ؛ لأنَّ مِنَ المَخْلُوقَاتِ مَخْلُوقَاتٌ لَا شَرَّ فِيهَا: مثل الملائكة، ومثل العرش، ومثل الجنَّة، فيكونُ المُسْتَعَاذُ [منه] ^(١) هو مخلوقٌ ذو شرٍّ.



^(١) قال الشيخ - حفظه الله - في هذا الموضع: (المستعاذ به)، ولعل المقصود: (المستعاذ منه)، والله أعلم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضُ أَفْرَادِ الْمَخْلُوقَاتِ الْمَشْتَمِلَةِ عَلَى شَرٍّ، فَقَالَ: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ وَهُوَ اللَّيْلُ إِذَا اسْتَحْكَمَ ظَلَامُهُ؛ لِمَا فِيهِ مِنْ انْتِشَارِ الْأَرْوَاحِ الشَّرِّيرَةِ، وَالْحَيَوَانَاتِ الْمُؤْذِيَةِ، وَعِنْدَ التِّرْمِذِيِّ بِسَنَدٍ حَسَنٍ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ، فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، اسْتَعِذِي بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا، فَإِنَّ هَذَا هُوَ الْغَاسِقُ إِذَا وَقَبَ»، فَجَعَلَ الْقَمَرَ عَلَامَةً لَهُ.

فَيَكُونُ الْحَدِيثُ إِشَارَةً إِلَى اللَّيْلِ بِذِكْرِ عَلَامَةٍ تَخْتَصُّ بِهِ وَهِيَ الْقَمَرُ. فَإِشَارَتُهُ ﷺ إِلَى الْقَمَرِ لَا يُرَادُ بِهَا ذَاتُ الْجُرْمِ، وَإِنَّمَا يُرَادُ بِهَا الظَّرْفُ الَّذِي احْتَوَاهُ - وَهُوَ اللَّيْلُ - لِأَنَّهُ مَوْضِعٌ لِلشُّرُورِ.



قَالَ الْمُصَنِّفُ حَفِظَهُ اللَّهُ:

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ وهي الأنفس السَّواحر من الرِّجَالِ والنِّسَاءِ، اللَّوَاتِي يَسْتَعِينَ عَلَى سِحْرِهِنَّ بِالنَّفْخِ مَعَ رِيْقٍ لَطِيفَةٍ فِي الْعُقَدِ الْمَشْدُودَةِ عَلَيْهِ.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ وَهُوَ مَنْ يَكْرَهُ وَصُولَ النِّعْمَةِ إِلَى مُحْسُوْدِهِ، اسْتِعَاذَ مِنْهُ إِذَا ثَارَ حَسَدُهُ وَبَرَزَ.

وَقَدْ تَضَمَّنَتْ هَذِهِ السُّورَةُ الْاسْتِعَاذَةَ مِنْ أَنْوَاعِ الشُّرُورِ عَمُومًا، وَمِنْ أَصُولِهَا خُصُوصًا.

قَوْلُهُ: (بِالنَّفْخِ مَعَ رِيْقٍ لَطِيفَةٍ) هَذَا يُسَمَّى: «نَفْثًا»؛ يَعْنِي النَّفْثَ لَا بُدَّ فِيهِ مِنْ رِيْقٍ لَطِيفَةٍ، فَإِنْ خَلَى مِنَ الرِّيْقِ سُمِّيَ: «نَفْخًا»: فَهُوَ الْهَوَاءُ الْمُجَرَّدُ.



تَفْسِيرُ

سُورَةِ النَّاسِ

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ • مَلِكِ النَّاسِ • إِلَهِ النَّاسِ • مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ • الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ • مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [النَّاس: ١-٦].

مُسْتَهْلُ هذه السُّورَةِ كسابقتها، فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ أَنْ يَقُولَ مَتَعَوِّذًا، فَقَالَ لَهُ: ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ أَيَّ الْجَبَأِ وَأَعْتَصِمُ؛ ﴿بِرَبِّ النَّاسِ﴾ وَهُوَ سَيِّدُهُمُ الْمَالِكُ الْمَصْلِحُ لَهُمْ، ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ وَمَلِكُهُ مِنْ رَبُّوبِيَّتِهِ لَكِنْ أَفْرَدَ لَجَلَالَةِ مَوْقِعِهِ، ﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾: مَعْبُودُهُمْ بِحَقٍّ؛ ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ وَهُوَ الشَّيْطَانُ، ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ فَيَحْسِنُ لَهُمُ الشَّرَّ، وَيُقَوِّي إِرَادَتَهُمْ لَهُ، وَيُقَبِّحُ لَهُمُ الْخَيْرَ وَيُثَبِّطُهُمْ عَنْهُ، فَإِذَا اسْتَعَاذَ مِنْهُ الْعَبْدُ تَأَخَّرَ وَانْدَفَعَ عَنْهُ، فَالْخَنَّاسُ هُوَ الْمَتَأَخِّرُ الْمُنْدَفِعُ إِذَا ذَكَرَ الْعَبْدُ رَبَّهُ وَاسْتَعَاذَ بِهِ فِي دَفْعِهِ، وَمَحَلُّ وَسُوسَتِهِ: صُدُورُ الْخَلْقِ ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

قَوْلُهُ: (وَمَحَلُّ وَسُوسَتِهِ: صُدُورُ الْخَلْقِ ﴿مِنْ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾)؛ أَيَّ أَنَّ الْآيَةَ الْأَخِيرَةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِذِكْرِ الْمُوسَّوسِ فِيهِ، لَا بِذِكْرِ الْمُوسَّوسِ.

فَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِي صُدُورِ النَّاسِ • مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾؛ أَيَّ: الْمُوسَّوسِ مِنْهُمَا، فَالنَّاسُ هُمُ الْجِنَّةُ وَالْإِنْسُ، وَيَكُونُ ذِكْرُ النَّاسِ فِي آخِرِ الْآيَةِ مِنْ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ.

وَلَيْسَتْ الْآيَةُ فِي ذِكْرِ الْمُوسَّوسِ؛ لِأَنَّ الْإِنْسَ يَمْتَنِعُ كَوْنُ أَحَدِهِمْ مُوسَّوسًا؛ لِأَنَّ «الْوَسْوَسةَ»: إِلْقَاءُ بَاطِنٍ خَفِيِّ، وَلَا سَبِيلَ لَشَيَاطِينِ الْإِنْسِ إِلَى ذَلِكَ، وَإِنَّمَا يَكُونُ فِعْلُ الْإِنْسِ: «الْوَشْوَشةَ».

- (فَالْوَشْوَشةُ): فِعْلُ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ بِإِلْقَاءِ الشَّرِّ فِي آذَانِ الْخَلْقِ.

- (وَالْوَسْوَسةُ): فِعْلُ شَيَاطِينِ الْجَنِّ بِإِلْقَاءِ الشَّرِّ فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، يَعْنِي مِنَ الْجَنِّ وَالْإِنْسِ.

فَتَكُونُ الْآيَةُ فِي ذِكْرِ «الْمُوسَّوسِ فِيهِ»، لَا فِي ذِكْرِ «الْمُوسَّوسِ».

وَبِهَذَا نَكُونُ قَدْ فَرَعْنَا - بِحَمْدِ اللَّهِ - مِنَ الْكِتَابِ السَّادِسِ

